

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد .
ففي هذا اليوم ، الرابع عشر ، من شهر جمادى الأولى ، من عام ثلاث وثلاثمائة بعد الأربعمائة والألف من
الهجرة النبوية الشريفة ، 1433 هـ ، ينعقد هذا المجلس المبارك ، وهو الثالث في ترتيبه ، في سلسلة
لقاءات الدورة العقدية الأولى ، وموضوع هذا اللقاء ، هو في الرسالة العرشية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله ، وقد تقدم فيما مضى ، ما يغني في ذكر طرف من سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .
وبين يدي هذه الرسالة المهمة ، لا بد من بعض المقدمات ، التي تجعلنا متأهلين لسماعها ، وذلك أن هذه
الرسالة القيمة ، تتعلق بموضوع شريف ، ومبحث منيف ، وهو : موضوع العلو ، ولا يخفى أن علو الله عز
وجل ثابت بأنواعه الثلاثة .

فله سبحانه وتعالى من العلو ثلاثة أنواع :

-علو القدر .

-وعلو القهر .

-وعلو الذات .

جميع هذه الأنواع الثلاثة ، ثابتة لربنا عز وجل .

فأما علو القدر : فالمقصود به أن الله سبحانه وتعالى ، له الأسماء الحسنی ، وله الصفات العلی ، وله المثل
الأعلى ، فعلو القدر ، يعني ثبوت نعوت الجلال وصفات الكمال ، لله عز وجل ، وهذا النوع لا ينازع فيه
أحد من أهل القبلة ، فما من مؤمن ، إلا وهو مقر بأن الله سبحانه وبحمده ، ينبغي أن يتصف بصفات الكمال
، ونعوت الجلال ، وأن له منها المثل الأعلى .

وأما النوع الثاني فهو : علو القهر .

وهو : أن الله سبحانه وبحمده ، قد قهر جميع مخلوقاته ، وعلا عليهم ، كما قال سبحانه وبحمده {وهو القاهر
فوق عباده} فله سبحانه ، القهر المطلق ، وهذا النوع أيضا ، لا ينازع فيه أحد من أهل القبلة ، وإنما وقع
النزاع في النوع الثالث .

النوع الثالث : علو الذات .

والمقصود بعلو الذات : أن الله سبحانه وبحمده ، بذاته ، فوق سماواته ، مستو على عرشه ، بائن من خلقه ،
ليس فيه شيء من خلقه ، ولا في خلقه شيء منه ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى ، له العلو المطلق في ذاته ،

فهو سبحانه ، في جهة العلو ، قد استوى على عرشه ، كما أثبت ذلك في سبعة مواضع من كتابه ، في ستة منها {ثم استوى على العرش} وفي سورة طه {الرحمن على العرش استوى.} وهذا العلو محل إجماع أهل السنة والجماعة ، إلا أن الزائغين قد نازعوا فيه : فـمنهم من زعم أن الله سبحانه موجود في كل مكان .

تعالى الله عما يقولون ، ويقول قائلهم : الله في كل مكان ، فأنكروا أن يكون سبحانه وتعالى ، مختصا بجهة العلو .

ومنهم من نفى عن الله عز وجل الجهات الست ، فقال : لا فوق ، ولا تحت ، ولا يمين ، ولا شمال ، ولا أمام ، ولا خلف .

وهذا في الحقيقة ، يفضي إلى القول بالعدم ، وكل هذه الأقوال أقوال باطلة ، يابأها الشرع ، ويأبأها العقل ، وتأبأها الفطرة ، والحق هو ما عليه أهل السنة والجماعة .

وقد توافرت الأدلة على إثبات علو الذات ، بما لا يبقي مجالاً للشك فيه .

فقد دل على إثبات علو الله تعالى : القرآن العظيم .

حتى قال بعض علماء الشافعية : إن في القرآن العظيم ، أكثر من ألف دليل ، على إثبات علو الله ، ودلالة القرآن العظيم ، على إثبات علو الله ، تأتي بصيغ متعددة :

-فتارة تكون بالتصريح بذكر العلو.

كقول الله تعالى {سبح اسم ربك الأعلى} ، {وهو العلي العظيم} ، {وهو الكبير المتعال} .

-وتارة تأتي بذكر صعود الأشياء إليه ، والصعود لا يكون إلا إلى أعلى ، كما قال سبحانه وبحمده {تخرج الملائكة والروح إليه} ، وقال أيضا {إليه يصعد الكلم الطيب} ، وقال سبحانه {يل رفعه الله إليه} ، والرفع لا يكون إلا إلى أعلى ، فالصعود والرفع والعروج ، كل هذه الألفاظ وما قاربها وما شابهها ، تدل على إثبات علو الله تعالى ، علوا ذاتيا .

-وتارة تكون بذكر نزول الأشياء منه.

كالإخبار بنزول الملائكة منه ، والإخبار بنزول الوحي منه ، ونحو هذا .

-وتارة تكون بذكر الاستواء ؛ إذ الاستواء يعني العلو في اللغة ، فإن معنى "استوى" في اللغة ، أي علا ، فهذا يدل على إثبات العلو .

-وتارة تكون بذكر كونه في السماء.

كقوله سبحانه {أأمنتم من في السماء} أي علا السماء ، إلى غير ذلك من أنواع الأدلة الدالة على إثبات علو الله تعالى في القرآن العظيم .

كذلك دلت السنة على إثبات علو الله تعالى ، بأحاديث صحيحة ، ومن ذلك :

قول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية [أين الله ؟] قالت : في السماء ، قال [فمن أنا ؟] قالت : أنت رسول الله ، قال [أعتقها فإنها مؤمنة.]

كما انعقد الإجماع على إثبات علو الله بذاته فوق سماواته .

وإضافة إلى هذه الأدلة الثلاثة ، الكتاب والسنة والإجماع ، دل العقل على إثبات الرب علوا ذاتيا ؛ إذ العقل يقطع أن العلو صفة كمال ، وأن السفلى صفة نقص ، وأن الذي ينبغي للرب الخالق المالك الكامل من جميع الصفات ، أن يكون له وصف الكمال ، ويُنزّه عن ضده ، فالعقل يقطع بأن الرب سبحانه ، ينبغي أن يتصف بالعلو ، وأن ينزهه عن السفلى.

وكذلك دلت الفطرة على إثبات علو الله تعالى ، فإن الله فطر جميع الخلائق ، الآدميين والبهائم ، وسائر المخلوقات ، على طلب الله تعالى من جهة العلو ، فكل إنسان يجد في قلبه رغبة وطلبا لله سبحانه وتعالى ، باتجاه العلو ، لا يمنة ولا يسرة.

وقد جرى في هذا قصة ، في مجلس أبي المعالي الجويني ، وكان أبو المعالي من أئمة الأشاعرة ، الذين ينفون العلو والاستواء ، وكان في مجلسه رجل ، يقال له : أبو جعفر الهمداني ، فكان الجويني يقرر ويقول : كان الله ولا شيء ، وهو الآن على ما كان عليه " يُعرض بنفي الاستواء ، بدعوى أن الاستواء صفة ذاتية ، وأن الله لا يطراً عليه شيء بعد أن لم يكن ، يريد بذلك أن ينكر أن يكون الله قد استوى على عرشه ، فابتدر أبو جعفر الهمداني ، وقال له : يا إمام ، دعنا من ذكر العلو والاستواء ، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في قلبه ، ما قال عارف قط : يا الله ، إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو ، لا يتجه يمنة ولا يسرة ، فجعل الجويني يلطم على رأسه ، ويقول : حيرني الهمداني ، حيرني الهمداني ، فهذا دليل من الفطرة .

ويقال : إن البهائم أيضا يوم عرفة ترفع طرفها إلى السماء ، ويقال أيضا : إنها إذا ضربت وأويت أذى بالغا ، أنها ترفع طرفها إلى السماء ، كأنما تشكو إلى الله عز وجل .

وأنتم تلاحظون أيضا ، أن الصبية الصغار يدركون هذا المعنى ، ويستسيغونه ، ولا يردونه ، أي أن الله سبحانه وتعالى ، له العلو المطلق.

فكل هذه الأدلة المتوافرة ، تدل على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ، من أن الله سبحانه وبحمده ، فوق سماواته ، مستو على عرشه ، بائن من خلقه ، ليس فيه شيء من خلقه ، ولا في خلقه شيء منه .

وقد احتاج أهل السنة والجماعة ، في مقام المناظرة ، والمساجلة ، إلى أن يعبروا بقولهم : بذاته ، أن الله سبحانه وتعالى بذاته ، فوق سماواته ، وإن كان لا مُحْوج لها في مجال التقرير العام ، ولكنه أتى بها للتأكيد على أن العلو علو ذاتي ، وليس ما يحاوله المتكلمون ، من صرف أدلة العلو الذاتي إلى علو المكانة ، وعلو المنزلة ، وعلو الصفات ، فهذا أمر لا يَنازَع فيه ، وإنما المراد علو الذات ، فهو سبحانه كما علمتم .

وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أيضا ، أن علوه كائن فوق عرشه ، فإنه سبحانه قد استوى على عرشه ، والعرش في الحقيقة ، هو أعظم المخلوقات ، وأكبرها ، وأعلاها ، والعرش سرير ذو قوائم ، وهو أعظم المخلوقات ، وأكبرها ، وأعلاها ، وهو سقف الجنة ، وليس فوقه إلا الرحمن سبحانه وبحمده ، وجميع المخلوقات العلوية والسفلية ، فإنها دون العرش ؛ فلذلك اقترن ذكر العلو ، بذكر العرش ، ولا يصح أن يُحرف معنى العرش إلى الهيمنة أو السيطرة ، أو غير ذلك من التأويلات الباطلة ، بل العرش سرير ذو قوائم ، خلق عظيم هائل ، لا يحيط به إلا خالقه سبحانه وتعالى ، وهو غير الكرسي ، فإن الكرسي موضع القدمين ، كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما ، فلا يصح أن يفسر العرش بالكرسي ، ولا أن يفسر العرش بأنه كناية عن الهيمنة أو السيطرة ، ولا أن يفسر العرش ولا الكرسي بأنهما العلم ، كل ذلك من التأويلات الباطلة ، والواجب علينا كما تقدم ، أن نطيب نفسا ، وأن نقر عينا بخبر الله ورسوله ، وألا نتعرض بأي نوع من أنواع التجني ، على النصوص ، لا بتمثيل ولا بتكليف ، ولا بتحريف ، ولا بتعطيل ، بل نعتقد أنها حق على حقيقتها ، فمن هنا جاءت هذه الرسالة الماتعة ، التي ناقش فيها الشيخ رحمه الله ، مبحثا دقيقا ، شغب فيه بعض أهل الفلسفة والمتكلمين ، وأرادوا أن يفسدوا على الناس تصوراتهم وعقائدهم ، بالتدريج بما يسمى بـ "علم الهيئة" وهو مصطلح ، يقابل ما يعرف حاليا بعلم الفلك ، أو علم الجغرافيا ، أو هما معا.

وقد تميزت هذه الرسالة بمزايا عدة ، فمنها :

-أنها أثبتت عقيدة العلو ، عقلا ونقلا.

-نقض شبهة الفلاسفة بدعوى علم الهيئة.

-بيان منهج التعامل مع العلوم النظرية ، والتجريبية .

-توجيه بعض الأحاديث المتعلقة بمسألة العلو.

متن :

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِيِّ وَالْعَابِدِ النُّورَانِيِّ ابْنَ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِي أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

مَا تَقُولُ فِي الْعَرْشِ هَلْ هُوَ كَرِيٌّ أَمْ لَا؟ وَإِذَا كَانَ كَرِيًّا وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ مُحِيطٌ بِهِ بَائِنٌ عَنْهُ، فَمَا فَائِدَةُ أَنَّ الْعَبْدَ يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حِينَ دُعَايِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَيَقْصِدُ الْعُلُوَّ دُونَ غَيْرِهِ، وَلَا فَرْقَ حِينَئِذٍ وَقْتَ الدُّعَاءِ بَيْنَ قَصْدِ جِهَةِ الْعُلُوِّ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْجِهَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِالدَّاعِي؟ وَمَعَ هَذَا نَجِدُ فِي قُلُوبِنَا قَصْدًا يَطْلُبُ الْعُلُوَّ لَا يَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَأَخْبِرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا، وَقَدْ فَطَرْنَا عَلَيْهَا.

وَابْسُطْ لَنَا الْجَوَابَ فِي ذَلِكَ بَسْطًا شَافِيًّا، يُزِيلُ الشُّبُهَةَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَدَامَ اللَّهُ النَّفْعَ بِكُمْ وَبِعُلُومِكُمْ آمِينَ.

شرح :

هذه هي صورة المسألة ، والذي يظهر من حال السائل ، أنه سائل مقر بالعلو ، ولكن أشكل عليه هذا الإيراد ، وهو مبني على مقدمة سأل عنها ، ولم يقطع بها ، وهي : هل العرش كروي أم لا ؟ أي : هل هو على صفة الكرة الفلكية ، كالفلك المستدير أم لا ؟ ثم بنى على سؤاله مسألة أخرى ، أنه إن كان كذلك ، والله تعالى محيط به ، فمعنى ذلك أنه لا وجه لتخصيص جهة العلو من بقية الجهات ، فكيف يتوجه الداعي حال دعائه إلى جهة العلو ، مع أن الجهات سوف تكون بالنسبة له سواء ، هذا هو الإشكال الذي تضمنته هذه المسألة ، فأجاب عنها .

متن :

فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِثَلَاثِ مَقَامَاتٍ أَحَدُهَا :

أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : لَمْ يَثْبُتْ بِدَلِيلٍ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ أَنَّ الْعَرْشَ فَلَكٌ مِنَ الْأَفْلَاكِ الْمُسْتَدِيرَةِ الْكُرِّيَّةِ الشَّكْلِ، لَأَبَدِيٍّ شَرْعِيٍّ، وَلَا بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ.

وَأِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا طَائِفَةً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، الَّذِينَ نَظَرُوا فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْفَلَسَفَةِ، فَرَأَوْا أَنَّ الْأَفْلَاكَ تِسْعَةٌ، وَأَنَّ التَّاسِعَ وَهُوَ النَّاطِلِسُ مُحِيطٌ بِهَا، مُسْتَدِيرٌ كَأَسْتَدَارَتِهَا، وَهُوَ الَّذِي يُحَرِّكُهَا الْحَرَكَةَ الشُّوقِيَّةَ، وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ فَلَكٍ حَرَكَةٌ تَخْصُهُ غَيْرُ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ سَمِعُوا فِي أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ذِكْرَ عَرْشِ اللَّهِ، وَذِكْرَ كُرْسِيِّهِ، وَذَكَرَ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، فَقَالُوا بِطَرِيقِ الظَّنِّ: إِنَّ الْعَرْشَ هُوَ: الْفَلَكُ التَّاسِعُ، لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ التَّاسِعِ شَيْءٌ، إِمَّا مُطْلَقًا وَإِمَّا أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَهُ مَخْلُوقٌ.

ثُمَّ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّ التَّاسِعَ هُوَ الَّذِي يُحَرِّكُ الْأَفْلَاكَ كُلَّهَا، فَجَعَلُوهُ مَبْدَأَ الْحَوَادِثِ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ فِيهِ مَا يَقْدِرُهُ فِي الْأَرْضِ، أَوْ يُحْدِثُهُ فِي النَّفْسِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ، أَوْ فِي الْعَقْلِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ هَذَا الْفَلَكُ، وَرَبَّمَا سَمَّاهُ بَعْضُهُمُ الرُّوحَ، وَرَبَّمَا جَعَلَ بَعْضُهُمُ النَّفْسَ هِيَ: الرُّوحَ، وَرَبَّمَا جَعَلَ بَعْضُهُمُ النَّفْسَ هِيَ: اللُّوْحُ الْمَحْفُوظُ، كَمَا جَعَلَ الْعَقْلَ هُوَ: الْقَلَمُ.

وَتَارَةً يَجْعَلُونَ الرُّوحَ هُوَ الْعَقْلُ الْفَعَالُ الْعَاشِرُ الَّذِي لِفَلَكِ الْقَمَرِ، النَّفْسَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهِ، وَرَبَّمَا جَعَلُوا ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ كَالدِّمَاغِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ، يَقْدَرُ فِيهِ مَا يَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قَدْ شَرَحْنَاهَا، وَبَيَّنَّا فَسَادَهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

شرح :

في هذه القطعة ، بيان لمقالة هؤلاء ، وهم أهل الهيئة ، من الفلاسفة الذين وضعوا تصورا عن هيئة الأكوان ، وإحاطة بعضها ببعض ، وطريقة تدبيرها ، ومن المعلوم أن الفلاسفة قوم من الملاحدة ، وهم يجعلون العقول تسعة ، ويجعلون آخرها العقل الفعال ، وربما عبروا بالعقل الفعال عن الله سبحانه وتعالى ، وكلها اصطلاحات مبنية على الظن {إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون} فهم في الحقيقة يرحمون بالغيب ،

ويضعون هذه التصورات ، ولذلك حكى الشيخ عنهم هذه المقالات ، وادعاءهم بأن العرش هو ما يقابل الفلك التاسع حسب تعبيراتهم ، فالفلاسفة الذين وجدوا في زمن الإسلام ، حاولوا أن ينزلوا الاصطلاحات الشرعية ، التي أتى بها الكتاب والسنة ، على ما ورثوه من أسلافهم من اليونان ، فصاروا يأتون بالاصطلاحات الشرعية ، مثل : القلم ، واللوح المحفوظ ، والعرش ، وينزلونها على علوم الأوائل ، من أساطين الفلسفة اليونانية ، لتقريب هذه الفلسفة اليونانية ، بالعقيدة الإسلامية ، ولا شك أن هذا مبدأ باطل ، ومنتهى فاسد ، فإن هذه الدعاوى ، دعاوى مبنية على الظن والتوهم ، بل مبنية على إنكار وجود الله تعالى الوجود الحق ، الذي يعتقد ورثة الأنبياء ، من أنه سبحانه وبحمده ، له وجود حقيقي ، وله ذات تقوم بها صفات ، فكل هذه المعاني لا يقر بها الفلاسفة ، وإنما يرتبون الأمور كما سمعتم .

وهم يزعمون أن هذا الفلك التاسع هو مبدأ الحوادث ، بمعنى أن هذا الفلك التاسع ، الذي هو العرش بزعمهم ، هو الذي تنشأ عنه الحوادث الأرضية ، والحوادث النفسية ، هكذا زعموا وفاهوا به ، وأن حركة بقية الأفلاك مرتبطة به بدافع الشوق ، ولهذا قلنا "الحركة الشوقية" بدافع الشوق والانجذاب ونحو ذلك ؛ ولهذا أعرض الشيخ رحمه الله عن تنفيذ هذه المقالات على سبيل التفصيل ، اكتفاء بما سبق في مقامات أخرى ، فقال : إلى غير ذلك من المقالات التي قد شرحناها وبيننا فسادها في غير هذا الموضع .

ولكني أود أن ألفت الانتباه في هذا المقام ، إلى أن هذا الكلام الذي ينبو على السمع ، لا يزال يردده بعض المعاصرين من المتفلسفة ، حتى أوقفني بعض الطلبة قريبا ، على مقالة لبعض المعاصرين من الكتاب ، يصف فيها هكذا : بأن الله تعالى له عقل يفعل به الأشياء ، ونحو هذا الكلام الممجوج ، فكل هذا الكلام من موروثات الفلاسفة ، من اليونان وغيرهم ، فلا يُلتفت إليه ، ولا يُعبر به ، وينبغي لطالب العلم أن يربأ بنفسه عن مثل هذا الكلام ، ولا يستعمله في كلامه .

متن :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ عِلْمَ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْكَشْفِ وَالْمُشَاهَدَةِ، وَيَكُونُ كَاذِبًا فِيمَا يَدَّعِيهِ وَإِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَلِّسَةِ تَقْلِيدًا لَهُمْ، أَوْ مُوَافَقَةً لَهُمْ عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ، كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ رَسَائِلِ إِخْوَانِ الصِّفَا وَأَمْثَالُهُمْ.

شرح :

هذه الفرقة ، المسماة "إخوان الصفا وخلان الوفا" فرقة رافضية باطنية ، نشأت في القرن الرابع الهجري ، واعتمدت الفلسفة الإلحادية ، وكانت تصدر دعاواها ومزاعمها بصفة رسائل ، بلغت اثنتين وخمسين رسالة ، ويتم تداولها بطريق الخفاء والسر ، وانتشرت وقويت شوكتهم إبان القرن الرابع الهجري ، الذي كان يسميه الذهبي "قرن الرفض" حينما تسلط الروافض على بلدان المسلمين ، فكان القرامطة في الأحساء والبحرين ، وكان الباطنيون العبيديون في مصر والمغرب ، وكان الصليحيون في اليمن ، وكان الحمداونيون في حلب

وأعمالها ، حتى عم الرفض الأرض ، ففي تلك الأجواء الفاسدة ، وجدت هذه الجمعيات ، ومنها : جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا .

والعجب أن تراثهم ذلك قد انطمر ، ثم انتدب له في هذا الزمان النصارى ليخرجوه من جديد ، فحقق هاتين الثنتين والخمسين رسالة ، رجل يقال له "بطرس البستاني" وأعاد نشرها من جديد.

متن :

وَقَدْ يَتَمَثَّلُ فِي نَفْسِهِ مَا تَقَلَّدَهُ عَنْ غَيْرِهِ فَيَظُنُّهُ كَشْفًا، كَمَا يَتَخَيَّلُ النَّصْرَانِيُّ التَّثْلِيثَ الَّذِي يَعْتَقِدُهُ، وَقَدْ يَرَى ذَلِكَ فِي مَنَامِهِ فَيَظُنُّهُ كَشْفًا، وَإِنَّمَا هُوَ تَخَيُّلٌ لِمَا عَتَقَدَهُ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْعَتَقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ إِذَا ارْتَأَضُوا صَقَلَتِ الرِّيَاضَةُ نَفُوسَهُمْ، فَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ عَتَقَادَاتُهُمْ، فَيَظُنُّونَهَا كَشْفًا، وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

شرح :

ههنا الشيخ رحمه الله ، يفسر منشأ تكون هذه العقائد الفاسدة ، في نفوس معتقديها ، وهي : أن الشيطان يلقي إليهم بهذه الإيحاءات ، فلا تزال تتردد في جنبات نفوسهم ، وتترىض نفوسهم معها ، حتى تصبح هيئة ثابتة لهم ، مستقرة ، مع شناعتها وبشاعتها ، ونفرة الطباع منها ، لكنها تتقلب عندهم إلى ما يشبه الحقائق ، ولهذا استساع كثير من الملاحدة ، العقائد الباطلة الفاسدة ، التي تنافي الفطرة ، بسبب تكرارها واستدامتها ، وإعادة البحث فيها ، وربما أيضا حصل لهم شيء من المنامات والإلقاءات ، يعززها في نفوسهم ، حتى تطيب نفوسهم الفاسدة بهذه العقائد الفاسدة .

ومن استقى من ينبوع الكتاب والسنة طابت نفسه ؛ ولهذا فإن هؤلاء يحتاجون إلى ما تحتاج إليه الجلالة ، فإن الجلالة تحبس أربعين يوما ، حتى يطيب لحمها ، فهؤلاء الذين عاشوا على الأفكار الفاسدة ، والعقائد الباطلة ، حينما يدعون الانتقال إلى الإسلام ، لا ينبغي أن يُصدروا ، ولا أن يوضعوا في موضع التوجيه ، بل ينبغي أن يرتاضوا على الكتاب والسنة ، حتى تتغير نفوسهم وأمزجتهم ، وهذا أمر ينبغي التنبيه له ، فإن كثيرا من الناس ، يحتقون بإسلام ملحد وضال ومبتدع ، ولا شك أن هذا من دواعي السرور ، لكن هذا لا يسوغ أن يُدفع بهم إلى المقدمة ، ويدعون إلى التصدر ، وهم بعد لم تطب نفوسهم بنعيم الكتاب والسنة ، يحتاجون إلى فترة ، حتى يتخلصوا من الشوائب السابقة ، ويكون نفوسهم موافقا لما جاء عن الله ورسوله .

متن :

الْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ الْعَرْشَ هُوَ الْفَلَكَ النَّاسِعُ قَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ لَّا عَقْلِيٌّ، وَلَا شَرْعِيٌّ.

أَمَّا الْعَقْلِيُّ: فَإِنَّ أُمَّةَ الْفَلَّاسِفَةِ مُصَرِّحُونَ بِأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ عِنْدَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْفَلَكَ النَّاسِعِ شَيْءٌ آخَرُ، بَلْ وَلَا قَامَ عِنْدَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفَلَكَ هِيَ تِسْعَةٌ فَقَطْ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ دَلَّتْهُمْ الْحَرَكَاتُ

الْمُخْتَلَفَةُ، وَالْكُسُوفَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِهِ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَا ثُبُوتَهُ وَلَا انْتِفَاءَهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْكَوْكَبَ تَحْتَ هَذَا، بِأَنَّ السُّفْلِيَّ يَكْسِفُ الْعُلُويَّ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَاسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ فِي فَلَكَ فَوْقَهُ، كَمَا اسْتَدَلُّوا بِالْحَرَكَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ، عَلَى أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُخْتَلَفَةٌ، حَتَّى جَعَلُوا فِي الْفَلَكَ الْوَاحِدِ عِدَّةَ أَفْلَاكٍ، كَفَلَكَ التَّدْوِيرِ وَغَيْرِهِ.

فَأَمَّا مَا كَانَ مَوْجُودًا فَوْقَ هَذَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى ثُبُوتِهِ: فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ نَفْيَهُ وَلَا إِبْتَاتَهُ بِطَرِيقِهِمْ.
شرح :

في هذه القطعة ما يبين أن الفلاسفة لا يأوون إلى ركن شديد ، وإنما هم استدلوا بحركة الكواكب على بعض المعلومات التي تصح بطريق الحساب ، كعلمهم بأن بعضها يكسف بعضها ، كوقوع القمر مثلا بين الأرض والشمس ، فيؤدي ذلك إلى كسوف الشمس ، فالشيخ رحمه الله ، يقر ما كان حقا ، وما كان مُدركا بالوسائل الصحيحة ، ولكنه يحكي عنهم أنهم لا يثبتون شيئا وراء الفلك التاسع ، وعدم إبتاتهم لشيء وراء الفلك التاسع ، يدل على قصور علمهم ، وأنه لا يعتمد على مقالاتهم في هذا الشيء .

والشيخ رحمه الله يتحدث عما كان متاحا لدى أهل ذلك الزمان ، ومن المعلوم في الأزمنة الحديثة ، أن علم الفلك قد تطور تطورا واسعا ، وأمكن أن تقاس المسافات كما هو معلوم بالسنين الضوئية ؛ مما يدل على سعة ملك الله عز وجل ، وكل ذلك يدل على كمال ربوبيته ، ولكنه لا يسعفهم فيما ادعوه ، من أن العرش الذي استوى عليه الرحمن ، هو الفلك التاسع ، فإن هذه المعلومات باتت معلومات بائدة وقديمة ، ولا تمثل نزرا يسيرا مما توصل إليه علم الفلك الحديث.

متن :

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّ حَرَكََةَ التَّاسِعِ مَبْدَأُ الْحَوَادِثِ خَطَأً، وَضَلَّالٌ عَلَى أُصُولِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الثَّامِنَ لَهُ حَرَكََةٌ تَخْصُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِتِ، وَلِتِلْكَ الْحَرَكََةُ قُطْبَانِ غَيْرِ قُطْبِيِّ التَّاسِعِ، وَكَذَلِكَ السَّابِعُ، السَّادِسُ.
وَإِذَا كَانَ لِكُلِّ فَلَكَ حَرَكََةٌ تَخْصُهُ وَالْحَرَكَاتُ الْمُخْتَلَفَةُ هِيَ سَبَبُ الْأَشْكَالِ الْحَادِثَةِ الْمُخْتَلَفَةِ الْفَلَكَيَّةِ، وَتِلْكَ الْأَشْكَالُ سَبَبُ الْحَوَادِثِ السُّفْلِيَّةِ كَانَتْ حَرَكََةُ التَّاسِعِ جُزْءَ السَّبَبِ، كَحَرَكََةِ غَيْرِهِ. فَالْأَشْكَالُ الْحَادِثَةُ فِي الْفَلَكَ لِمُقَارَنَةِ الْكَوْكَبِ الْكَوْكَبِ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ. وَمُقَابَلَتُهُ لَهُ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِصْفُ الْفَلَكَ، وَهُوَ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً. وَتَثْلِيثُهُ لَهُ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا ثَلَاثُ الْفَلَكَ وَهُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَرْبِيعُهُ لَهُ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا رُبْعُهُ تِسْعُونَ دَرَجَةً، وَتَسْدِيسُهُ لَهُ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا سُدُسُ الْفَلَكَ سِتُونَ دَرَجَةً، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْكَالِ إِنَّمَا حَدَثَتْ بِحَرَكَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَكُلُّ حَرَكََةٍ لَيْسَتْ عَيْنَ الْأُخْرَى، إِذْ حَرَكََةُ الثَّامِنِ الَّتِي تَخْصُهُ لَيْسَتْ عَيْنَ حَرَكََةِ التَّاسِعِ، وَإِنْ كَانَ تَابِعًا لَهُ فِي الْحَرَكََةِ الْكُلِّيَّةِ، كَالْإِنْسَانِ الْمُتَحَرِّكِ فِي السَّفِينَةِ إِلَى خِلَافِ حَرَكَتِهَا.

وَكَذَلِكَ حَرَكَةُ السَّابِعِ الَّتِي تَخُصُّهُ، لَيْسَتْ عَنِ التَّاسِعِ وَلَا عَنِ الثَّامِنِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَفْلَاقِ. فَإِنَّ حَرَكَةَ كُلِّ وَاحِدٍ الَّتِي تَخُصُّهُ لَيْسَتْ عَمَّا فَوْقَهُ مِنَ الْأَفْلَاقِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ مَبْدَأُ الْحَوَادِثِ كُلِّهَا مُجَرَّدَ حَرَكَةِ التَّاسِعِ!! كَمَا زَعَمَهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعَرْشَ كَثِيفٌ وَالْفَلَكَ التَّاسِعُ عِنْدَهُمْ بَسِيطٌ مُتَشَابِهٌ الْأَجْزَاءِ، لَا اخْتِلَافَ فِيهِ أَصْلًا، فَكَيْفَ يَكُونُ سَبَبًا لِأُمُورٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَا بِاعْتِبَارِ الْقَوَابِلِ وَأَسْبَابِ أُخْرٍ؟.

شرح :

كما تلاحظون ، أن الشيخ رحمه الله ، دخل في شيء من كلام الهيئة ، وهو يدل على أن هذه المعلومة قديمة ، وهي : أن الدورة كاملة ، تمثل 360 درجة ، وأن نصفها 180 درجة ، وربعها 90 ، وسدسها 6 ، ان هذا أمر كان معهودا عند المتقدمين ، ولا زال عليه من يتكلم في الهندسة والهيئة وغير ذلك . فأراد الشيخ رحمه الله بهذا التقرير أن يبين بأن الفلك التاسع ، لا يختلف عن بقية الأفلاك ، وأنه لا يصلح أن يكون مبدأ للحوادث ، كما ادعى هؤلاء من تلقاء أنفسهم ، بلا دليل ولا بينة ولا برهان .

متن :

؟ وَلَكِنِّهِمْ قَوْمٌ ضَالُّونَ، يَجْعَلُونَهُ مَعَ هَذَا ثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً، وَيَجْعَلُونَ لِكُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ النَّائِرِ مَا يُخَالَفُ الْآخَرَ، لَا بِاخْتِلَافِ الْقَوَابِلِ، كَمَا يَجِيءُ إِلَى مَاءٍ وَاحِدٍ فَيَجْعَلُ لِبَعْضِ جُزْئِهِ مِنَ النَّائِرِ مَا يُخَالَفُ الْآخَرَ، لَا بِحَسَبِ الْقَوَابِلِ؛ بَلْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَائِهِ مُسَخَّنًا، وَالْآخَرَ مُبْرَدًا، وَالْآخَرَ مُسْعَدًا، وَالْآخَرَ مُشْقِيًا، وَهَذَا مِمَّا يَعْلَمُونَ هُمْ وَكُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ.

وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَنْفِي وَجُودَ شَيْءٍ آخَرَ فَوْقَ الْأَفْلَاقِ التَّاسِعَةِ، كَانَ الْجَزْمُ بِأَنَّ مَا أُخْبِرَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ أَنَّ الْعَرْشَ هُوَ الْفَلَكَ التَّاسِعُ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَقَوْلًا بِمَا عَلِمَ.

هَذَا كُلُّهُ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِ الْأَفْلَاقِ التَّاسِعَةِ عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْهَيْئَةِ، إِذْ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّزَاعِ وَالْبِاضْطِرَابِ، وَفِي أدِلَّةِ ذَلِكَ مَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، وَأَيْضًا: فَالْأَفْلَاقُ فِي أَشْكَالِهَا، وَإِحَاطَةِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ؛ فَنِسْبَةُ السَّابِعِ إِلَى السَّادِسِ، كَنِسْبَةِ السَّادِسِ إِلَى الْخَامِسِ، وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ فَلَكٌ تَاسِعٌ فَنِسْبَتُهُ إِلَى الثَّامِنِ كَنِسْبَةِ الثَّامِنِ إِلَى السَّابِعِ.

شرح :

الشيخ رحمه الله أراد أن يقرر بأن الفلك التاسع ، شأنه كشأن الأفلاك التي قبله ، لا وجه لتخصيصه بأنه العرش الذي وردت به النصوص .

متن :

أَمَّا الْعَرْشُ فَالْأَخْبَارُ تَدُلُّ عَلَى مَبَايِنَتِهِ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ

شرح :

هذا شروع من الشيخ ، في بيان العقيدة الحقّة ، في عرش الرحمن سبحانه وبحمده ، وقد ذكر كل مسألة ، وأردفها بدليلها .

متن :

وَأَنَّهُ لَيْسَ نَسْبَتُهُ إِلَى بَعْضِهَا كِنِسْبَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ} الآية [غافر: 7]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: 17]، فَأَخْبَرَ أَنَّ لِلْعَرْشِ حَمَلَةَ الْيَوْمِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ حَمَلَتَهُ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ قِيَامَ فَلَكٍ مِنَ الْأَفْلَاقِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَقِيَامِ سَائِرِ الْأَفْلَاقِ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ كُرَّةٍ وَكُرَّةٍ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ لِبَعْضِهَا مَلَائِكَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ تَحْمِلُهَا، فَحُكْمُهُ حُكْمُ نَظِيرِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} الآية [الزمر: 75].

فَذَكَرَ هُنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْفُ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، وَذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ لَهُ حَمَلَةً، وَجَمَعَ فِي مَوْضِعٍ ثَالِثٍ بَيْنَ حَمَلَتِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}.

شرح :

هذه أولى المسائل المتعلقة بالعرش ، وهو : أن العرش مبين لجميع المخلوقات ، ليس كسائرهما ، فالفلك التاسع المزعوم ، هو على فرض أنه التاسع ، هو كسائرهما ، ونسبته إلى بعضها ، كنسبة بعضها إلى بعض ، لكن النصوص دلت على أن عرش الرحمن ، له وضع خاص ، وله هيئة خاصة ، وأن الله سبحانه وتعالى ، قد وكل ملائكة ثمانية ، بحمله ، وأنهم يحملونه الآن ، وأنهم يحملونه يوم القيامة ، كل ذلك ثابت بنصوص الكتاب والسنة ، وبقية الأفلاك الأخرى ، وإن كان فيها ملائكة ، لكن هذا ليس كشأن العرش ، فإن للعرش خاصية معينة ، ذكرها الله تعالى كما في الآيات ، {ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} وذلك يوم القيامة ، وقال في موضع {وترى الملائكة حافين من حول العرش} فذكر ذلك أيضا ، وجمع بينهما بقوله {الذين يحملون العرش ومن حوله} فعرش الرحمن خلق عظيم هائل ، لا تحيط به التصورات ، وهو فوق هذا العالم المنظور أو المقيس ، هو فوق ذلك كله ، مهما بلغ علم الفلك ، ومهما قاس المسافات بالسنين الضوئية ، التي تقاس بالملايين ، فإن عرش الرحمن من وراء ذلك ، فلا تبلغه حساباتهم ، ومداركهم.

متن :

أَيْضًا، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ عَرْشَهُ كَانَ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: 7].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ "،

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ "، وَفِي رِوَايَةٍ لِغَيْرِهِ صَحِيحَةٌ: " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ " وَتَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ " وَهَذَا التَّقْدِيرُ بَعْدَ وُجُودِ الْعَرْشِ وَقَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

شرح :

وهذا يدل على ان العرش هو أقدم المخلوقات ، وأنه قبل القلم ، وأن الحديث الوارد [أول ما خلق الله القلم] أن هذه الأولية بالنسبة لخلق السماوات والأرض ، وأما العرش فإن خلقه قبل ذلك .

متن :

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَمَدِّحٌ بِأَنَّهُ ذُو الْعَرْشِ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} [الإسراء: 24]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 15، 16]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ} [البروج: 14، 16]، وَقَدْ قُرِئَ {الْمَجِيدُ} بِالرَّفْعِ صِفَةً لِلَّهِ، وَقُرِئَ بِالْخَفْضِ صِفَةً لِلْعَرْشِ.

شرح :

أفادنا الشيخ ثانيا بما أخبر الله تعالى به ، ونبيه عليه الصلاة والسلام ، بأن العرش كان فوق الماء ، وهذا الماء ماء سابق لخلق السماوات والأرض ، لا نحيط به علما ، فنؤمن بما أخبر الله تعالى به ، والنصوص التي ساقها الشيخ ، تدل على عظم أمر العرش ، وشرفه ، وكبره ، وجلالته ، مما ينبغي أن يوقع في عقيدة المسلم تعظيم العرش ، وأن تعظيم العرش من عظيم المستوي عليه ، سبحانه وبحمده .

ثم إن الشيخ رحمه الله شرع في ذكر صفات العرش ، فذكر أن مما وصف به العرش :

بأنه مجيد .

على إحدى القراءتين في سورة البروج ، {وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد} فإنها إذا قرئت بالخفض ، كانت وصفا للعرش ، وإذا قرئت بالرفع {المجيد} كانت وصفا للرب ، وكلاهما قراءة صحيحة .

متن :

وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [المؤمنون: 86]، {فَوَصَفَ الْعَرْشَ بِأَنَّهُ مَجِيدٌ وَأَنَّهُ عَظِيمٌ، وَقَالَ تَعَالَى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون 116]، فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيْضًا.

وَكَذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ:
" لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ
الْعَرْشِ الْكَرِيمِ "، فَوَصَفَهُ فِي الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، وَكَرِيمٌ أَيْضًا.

شرح :

أيها الإخوان ، ويا أيتها الأخوات ، هذا الواقع يلفت نظرنا إلى مسألة مهمة ، وهي : أنه يجب علينا أن نعظم ما عظم الرب ، ونقدم ما قدم الرب ، ونهون ما هون الرب ، ونؤخر ما أخر الرب ، هل ساءلنا أنفسنا يوما : هل نحن نعظم العرش ، ونكرمه ، ونمجده ، كما عظمه ربنا ومجده وكرمه ؟ لطالما قرأنا هذه الآيات المتعلقة بالعرش ، وربما لم يقم في قلوبنا ما ينبغي ، فشيء يعظمه الله حري أن يُعظم ، وهذا يدلنا على أنه ينبغي أن نقرأ القرآن بمزيد تدبر ، كم يمر علينا في كتاب الله من الجمل والآيات التي لا نرفع بها رأسا ، ونجد أن الله سبحانه وتعالى ، قد عظمها ، أرأيتم مثلا قول الله تعالى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتتشقق الأرض وتخز الجبال هذا . أن دعوا للرحمن ولدا﴾ فينبغي للمؤمن ، أن يكيف نفسه وقلبه ومشاعره ، على نسق القرآن ، فما عظمه القرآن عظمه ، وما قدمه القرآن قدمه ، حتى يكون مزاجه صوابا ، وفهمه صحيحا ، فهذا مثال حاضر ، وهو أمر العرش العظيم ، الذي نؤمن به ، ولكننا لا نستحضر هذه المعاني الجليلة الفخمة ، التي فخم الله تعالى بها عرشه الكريم المجيد .

متن :

فَقَوْلُ الْقَائِلِ الْمُنَازِعِ: إِنَّ نِسْبَةَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى إِلَى مَا دُونَهُ كَنِسْبَةِ الْآخِرِ إِلَى مَا دُونَهُ، لَوْ كَانَ الْعَرْشُ مِنْ جِنْسِ الْأَفْلاكِ، لَكَانَتْ نِسْبَتُهُ إِلَى مَا دُونَهُ كَنِسْبَةِ الْآخِرِ إِلَى مَا دُونَهُ، وَهَذَا لَا يُوجِبُ خُرُوجَهُ عَنِ الْجِنْسِ وَتَخْصِيصَهُ بِالذِّكْرِ، كَمَا لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ تَخْصِيصَ سَمَاءِ دُونَ سَمَاءٍ، وَإِنْ كَانَتْ الْعُلْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى السُّفْلَى كَالْفَلَكَ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا امْتَنَزَ عَمَّا دُونَهُ بِكُونِهِ أَكْبَرَ، كَمَا تَمْتَنَزُ السَّمَاءُ الْعُلْيَا عَنِ الدُّنْيَا، بَلْ نِسْبَةُ السَّمَاءِ إِلَى الْهَوَاءِ، وَنِسْبَةُ الْهَوَاءِ إِلَى الْمَاءِ وَالْأَرْضِ. كَنِسْبَةِ فَلَكَ إِلَى فَلَكَ، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَخْصُ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ عَمَّا يَلِيهِ بِالذِّكْرِ، وَلَا بِوَصْفِهِ بِالْكَرَمِ وَالْمَجْدِ وَالْعَظَمَةِ.

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ سَبَبًا لِذَوَاتِهَا وَلَا لِحَرَكَاتِهَا، بَلْ لَهَا حَرَكَاتٌ تَخْصِيصًا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: حَرَكَتُهُ هِيَ سَبَبُ الْحَوَادِثِ، بَلْ إِنْ كَانَتْ حَرَكََةُ الْأَفْلاكِ سَبَبًا لِلْحَوَادِثِ، فَحَرَكَاتُ غَيْرِهِ الَّتِي تَخْصِيصًا أَكْثَرُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ مُحِيطًا بِهَا أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْ مَجْمُوعِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ مِنَ الْغَلْظِ مَا يُقَاوِمُ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْغَلِظَ إِذَا كَانَ مُتَقَارِبًا، فَمَجْمُوعُ الدَّخْلِ أَعْظَمُ مِنَ الْمُحِيطِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بِقَدْرِهِ أضعَافًا، بَلْ الْحَرَكَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي لَيْسَتْ عَنْ حَرَكَتِهِ أَكْثَرُ، لَكِنْ حَرَكَتُهُ تَشْمَلُهَا كُلَّهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ تُسَبِّحُ بِالْحَصَى مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى وَقْتِ الضُّحَى، فَقَالَ: " لَقَدْ قُلْتَ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتِيهِ لَوَزَنْتَهُنَّ:

سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِينَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ "، فَهَذَا بَيِّنٌ أَنْ زِينَةَ الْعَرْشِ أَثْقَلُ الْأَوْزَانِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْفَلَكَ النَّاسِعَ لَا خَفِيفَ وَلَا ثَقِيلَ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ أَثْقَلُ مَا يُمَثَّلُ بِهِ، كَمَا أَنَّ عَدَدَ الْمَخْلُوقَاتِ أَكْثَرُ مَا يُمَثَّلُ بِهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ لَطَمَ وَجْهَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ادْعُوهُ " فَدَعَاؤُهُ، فَقَالَ: " لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ " فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِالسُّوقِ وَهُوَ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ! فَقُلْتُ: يَا خَبِيثُ! وَعَلَى مُحَمَّدٍ! فَأَخَذْتَنِي غَضَبَةً فَلَطَمْتَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصَعِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذَا بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَتِهِ " فَهَذَا فِيهِ بَيَانٌ أَنَّ لِلْعَرْشِ قَوَائِمَ، وَجَاءَ ذِكْرُ الْقَائِمَةِ بِلَفْظِ السَّاقِ، وَالْأَقْوَالُ مُتَشَابِهَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ.

شرح :

مراده بذلك أنه قد جاء التعبير بلفظ الساق ، أي : فإذا أنا بموسى آخذا بساق العرش ، وأفادنا الشيخ رحمه الله في هذا ، ان هذا العرش له قوائم ، جمع قائمة ، وهي الساق ، ولكنها على صفة لا تدرکها عقولنا .
وقول النبي صلى الله عليه وسلم [لا تخيروا بين الأنبياء] ليس مراده صلى الله عليه وسلم ، أن ليس بين الأنبياء مفاضلة ، كلا ، أنبياء الله يتفاضلون ، كما قال الله تعالى {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله} فلا شك أن بين أنبياء الله تفاضل ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ، نهى عن المفاضلة والمخايرة ، على سبيل المنايزة والمباهاة ، كالذي جرى بين المسلم واليهودي ، فإن هذا يؤدي إلى انتقاص الطرف الآخر ، وهذا مدفوع مردود ، فإنه لا ينبغي أن يُقال من نبي من أنبياء الله ؛ ولهذا قال في الحديث الآخر [لا تفضلوني على يونس بن متى] أي لكون يونس عليه السلام ، قد خرج مغاضبا ، وعتب الله عليه أن فعل ذلك ، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يُفضل على يونس بن متى ، فالتفضيل الذي ينتج عنه تنقص الطرف الآخر ، أو وقع على سبيل المفاخرة والمباهاة المجردة مذموم ، وأما في حقيقة الأمر ، فلا ريب أن بين أنبياء الله تفاضل ، كما أثبت ذلك بقوله {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} .

متن :

وَقَدْ أَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ " قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ لَجَابِرٍ: إِنَّ الْبِرَاءَ يَقُولُ: اهْتَزَّ السَّرِيرُ، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيَّيْنِ الْوَأْسِ وَالْخَزْرَجِ ضِعَاثَيْنِ، سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ " وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَجِنَاةُ سَعْدٍ مَوْضُوعَةٌ: " اهْتَزَّتْ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ " .

شرح :

معنى هذه العبارة ، أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ ، وحين حدث البراء ، استعاض عن التعبير بالعرش بالسريير ، فاستدرك جابر ، وفسر ذلك بأنه كان بين الحيين الأوس والخزرج ، أمور ورواسب من الجاهلية ، فكأنه ظن أن البراء رضي الله عنه ، عبر بالسريير عن العرش ، مع أن دلالة العرش أعظم ، فعزا ذلك إلى ما كان بين الحيين ، الأوس والخزرج ؛ إذ كان سعد بن معاذ سيد الأوس ، فلعله فسره هكذا ، والمقصود أن عرش الرحمن يهتز لبعض الأمور ، كالذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، إما تعظيما ، وإما فرحا واستبشارا .

متن :

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ حَرَكَةَ الْفَلَكَ التَّاسِعِ دَائِمَةٌ مُتَشَابِهَةٌ، وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ اسْتِبْشَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَفَرَحِهِمْ، فَلَا يَدُلُّ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى مَا قَالُوا، كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ.

شرح :

أي أن الشيخ رحمه الله ، نقد أولا مقالة الفلاسفة ، الزاعمين بأن العرش هو الفلك التاسع ، أنهم يقررون بأن الفلك التاسع حركته منتظمة ، وليست مثلا تتعلق ببعض الحوادث الأرضية ، كموت سعد بن معاذ ، فهم يرون أنها حركة منتظمة مستديمة ، وهذا دليل على أن العرش ليس هو الفلك التاسع ، وإلا لما اهتز ، فهذا يبطل قول الفلاسفة .

ثم إنه أيضا تعرض لمقالة أهل التأويل ، الذين أولوا اهتزاز عرش الرحمن ، بأنه استبشار حملة العرش وفرحهم ، فهذا لا دليل عليه ، هذا تحريف ، فلا يجوز ان يقال : إن اهتزاز عرش الرحمن ، المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم ، بل يقال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [اهتز عرش الرحمن وكفى .]

متن :

مَعَ أَنَّ سِيَاقَ الْحَدِيثِ وَلَفْظَهُ يَنْفِي هَذَا الْلاَحْتِمَالَ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ". وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ " فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ، قَالَ: " وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ

بِهَا الْعَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. "

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: إِنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَنْتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرِبَ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ. قَالَ: " يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى " [وقوله: سهم غرِبَ أي لا يعرف راميهِ].

فَهَذَا قَدْ بَيَّنَّ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْفِرْدَوْسِ الَّذِي هُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، وَأَنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا. الْحَدِيثُ الثَّانِي: يُوَافِقُهُ فِي وَصْفِ الدَّرَجِ الْمِائَةِ. الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ: يُوَافِقُهُ فِي أَنَّ الْفِرْدَوْسَ أَعْلَاهَا.

وَإِذَا كَانَ الْعَرْشُ فَوْقَ الْفِرْدَوْسِ، فَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: إِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ فِي هَذَا مِنَ الْعُلُوِّ وَالرَّيْفَاعِ مَا لَا يُعْلَمُ بِالْهَيْئَةِ، إِذْ لَا يُعْلَمُ بِالْحِسَابِ أَنَّ بَيْنَ التَّاسِعِ وَالْأَوَّلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ التَّاسِعَ مُلَاصِقٌ لِلثَّامِنِ، فَهَذَا قَدْ بَيَّنَّ أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْفِرْدَوْسِ، الَّذِي هُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا.

شرح :

ولا يمتنع - يا رعاكم الله - أن يكون الشيء وسطا وأعلى ، في آن واحد ، فإن رأس الجبل يكون وسط الجبل وأعلاه ، في آن واحد .

وأراد الشيخ أن يبين ههنا ، أن مقالة الهيئة مقالة باطلة ، فقد نص النبي صلى الله عليه وسلم ، على أن الجنة بين كل درجة ودرجة مائة ، وهذه المسافات يأبأها علم الهيئة ، الذي ركبوا علمهم عليه ، مما يدل على أن شأن العرش ، الذي هو سقف الفردوس الأعلى ، أكبر من ذلك بكثير.

مناقشة : الشيخ رحمه الله هو نفي أن الاهتزاز بسبب استبشار حملة العرش ، فيكون في ذلك نوع من التأويل ، بصرف الاهتزاز عن العرش إلى حملة العرش ، أما أن يكون ذلك فرحا من العرش فلا مانع ، فرحا أو استبشارا أو تعظيما مضافا إلى العرش ، فلا مانع.

متن :

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْمَشْهُورِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: " آيَةُ الْكُرْسِيِّ " ثُمَّ قَالَ: " يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةِ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ "، وَالْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرُهُمَا.

شرح :

هذا الحديث حديث أبي ذر مختلف في ثبوته ، فمنهم من أثبته ومنهم من ضعفه ، وهو يدل على عظم العرش ، فإنه قد نسب الكرسي إلى العرش ، كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، أي لو أخذ بحلقة كحدوة الفرس ،

وأقيت في صحراء دوية ، كم تمثل ؟ شيئاً لا يذكر ، وفضل العرش على الكرسي ، كفضل الفلاة على تلك الحلقة ؛ مما يدل على عظم العرش ، وأنه خلق عظيم كبير.

متن :

وَقَدْ اسْتَدَلَّ مَنْ اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ مُقَبَّبٌ بِالْحَدِيثِ الَّذِي فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَهَدْتَ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، فَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: " وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ، وَإِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ هَكَذَا وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ " وَفِي لَفْظٍ: " وَإِنَّ عَرْشَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، وَسَمَوَاتُهُ فَوْقَ أَرْضِهِ هَكَذَا وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ."

وَهَذَا الْحَدِيثُ وَإِنَّ دَلَّ عَلَى التَّقْبِيبِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَنِ الْفَرْدَوْسِ إِنَّهَا أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، مَعَ قَوْلِهِ: إِنَّ سَقْفَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَإِنَّ فَوْقَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَالْأَوْسَطُ لَا يَكُونُ الْأَعْلَى إِلَّا فِي الْمُسْتَدِيرِ، فَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَالِكٌ مِنَ الْفَالِكِ، بَلْ إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ فَوْقَ الْفَالِكِ كُلِّهَا أَمْكَنَ هَذَا فِيهِ سِوَاءَ قَالِ الْقَائِلُ: إِنَّهُ مُحِيطٌ بِالْفَالِكِ، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ فَوْقَهَا وَلَيْسَ مُحِيطًا بِهَا، كَمَا أَنَّ وَجْهَ الْأَرْضِ فَوْقَ النِّصْفِ الْأَعْلَى مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُحِيطًا بِذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلَ الْقُبَّةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْفَالِكَ مُسْتَدِيرٌ مِثْلَ ذَلِكَ، لَكِنَّ لَفْظَ الْقُبَّةِ يَسْتَلْزِمُ اسْتِدَارَةَ مِنَ الْعُلُوِّ، وَلَا يَسْتَلْزِمُ اسْتِدَارَةَ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ إِلَّا بِدَلِيلٍ مُنْفَصِلٍ.

شرح :

أفادنا الشيخ رحمه الله من دلالة الحديث السابق ، أن العرش كالقبة ، فوق الجنة ، وفوق ما تحته ، وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم بيده ، فقال : هكذا ، ومن المعلوم أن القبة ليست مستدير كالكرة ، وإنما هي كشبه سقف أو أعلى الكرة فقط ، فهذا يدل على خلاف ما ذهب إليه هؤلاء المدعون أنه فلك مستقل ، فالحديث السابق حديث أبي داود ، فيه أيضا من الفوائد : تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم لربه ، مما يدل على نصاعة الإيمان ، وكمال الإيمان ، كيف أنه إذا ذكر الله تعالى بما لا يليق به ، انفعل القلب ، وذكر أثر ذلك على الجوارح ، فلما قال ذلك القائل : إنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، أقر الجملة الأولى ، وهي : أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا عند الله عز وجل ، لكن الثانية وقعت من النبي صلى الله عليه وسلم موقعا عظيما ، حتى جعل يسبح الله وينزهه ، كيف يُستشفع بالله على أحد من خلقه ، وقال له : ويحك ، تدري ما تقول ؟ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، حتى إن هذا التأثير ، عُرف في وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فينبغي للمؤمن أن يقوم في قلبه من تعظيم مقام الرب ، سبحانه وتعالى ، إذا ذُكر ، والوجل الذي يدل على كمال الإيمان حقا ، ما يستدعيه عند حصول مثل هذه الكلمات النابية ، أو الطائشة التي تصدر من السفهاء ، فيتأثر لذلك ، ولا يلهج لسانه بها كما يتكلم بسائر الكلام ، فإننا نسمع

وللأسف ، من بعض المتكلمين في وسائل الإعلام ، من يلوك الكلمات الفجة ، في حق الرب سبحانه وتعالى ، ناهيك عن دونه من الأنبياء والصالحين ، وما ذاك إلا بسبب خلو القلب من الإيمان ، أما أهل الإيمان الحق ، فإنهم إذا ورد على خواطرهم ، أو قرع أسماعهم شيء فيه تنقص للرب ، يتأثرون لذلك ، وينفعلون له ، ويرى أثره على وجوههم ؛ لقيامه قبل ذلك في قلوبهم .

متن :

وَأَفْظُ الْفَلَكَ يَدُلُّ عَلَى السِّتْدَارَةِ مُطْلَقًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 33]، وقوله تَعَالَى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: 40]، يَفْتَضِي أَنَّهَا فِي فَلَكٍ مُسْتَدِيرٍ مُطْلَقًا، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فِي فَلَكَةٍ مِثْلُ فَلَكَةِ الْمَغْزَلِ.

وَأَمَّا لَفْظُ الْقُبَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْمَعْنَى، لَا بِنَفْيٍ وَلَا إِبْتَاتٍ، لَكِنْ يَدُلُّ عَلَى السِّتْدَارَةِ مِنَ الْعُلُوفِ، كَالْقُبَّةِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى الْأَرْضِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْأَفْلاكَ غَيْرُ السَّمَوَاتِ، لَكِنْ رَدَّ عَلَيْهِ غَيْرُهُ هَذَا الْقَوْلَ، بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [نوح: 15، 16]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ فِي الْفَلَكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ الْكَلَامِ فِي هَذَا.

شرح :

مراده بهذا الكلام الأخير ، أن السماوات يحيط بعضها ببعض ؛ لأنه قد جعلها طباقا ، ومعنى أنها طباق أن بعضها يُطبَّق على بعض ، فهذا وجه الرد.

متن :

وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِيهِ، وَبَيَانُ أَنَّ مَا عِلِمَ بِالْحِسَابِ عِلْمًا صَحِيحًا لَا يُنَافِي مَا جَاءَ بِهِ السَّمْعُ، وَأَنَّ الْعُلُومَ السَّمْعِيَّةَ الصَّحِيحَةَ لَا تَنَافِي مَعْقُولًا صَحِيحًا .

شرح :

هذه جملة محكمة مفيدة لطالب العلم ، يستطيع أن يواجه بها جميع العلوم النظرية التطبيقية ، التي تحدث فيما مضى من الزمان ، أو تحدث في هذا الزمان.

يقول رحمه الله : إن ما علم بالحساب علما صحيحا ، لا ينافي ما جاء به السمع ، وإن العلوم السمعية الصحيحة ، لا تنافي معقولا صحيحا ، أراد رحمه الله ، أن يقرر بأن ما صح في الكتاب والسنة ، لا يمكن أن يكون مخالفا للواقع ، وما ثبت في الواقع لا يمكن أن يكون مخالفا لما صح في الكتاب والسنة ؛ لأنه كل من عند الله {ألا له الخلق والأمر} فالله سبحانه وتعالى ، هو الذي ركب الخلق على صفة معينة ، وعلى نسق معين ، وهو سبحانه وتعالى الذي أخبرنا بالأخبار المختلفة ، فلا يمكن أن يعارض خبره أمره ، فلا يمكن أن

يعارض خبره خلقه ، ولا يمكن أن يختلف خلقه مع خبره ، ولهذا قال رحمه الله في بعض كلامه : لا يمكن أن يتنافى صريح المعقول ، مع صحيح المنقول ، بل قد ألف رسالة بهذا المعنى ، سماها "موافقة صحيح المنقول لصريح المنقول" وألف كتابا بعنوان "درء تعارض العقل والنقل" ، فإذا رأيت أحدا يضرب العقل بالنقل ، فاعلم أنه إما أنه لم يتقن العقل ، وإما أنه لم يميز النقل ، فإما أنه أتى بكلام يظنه موافقا للعقل ، والأمر ليس كذلك ، أو استدل بدليل يظنه صحيحا من النقل وليس بصحيح ، لكن ما صح من النقل ، فلا بد أن يكون موافقا لما ثبت بالعقل ، لا تعارض بين الأمرين ، هذا هو معنى قول الشيخ رحمه الله : أن ما علم بالحساب علما صحيحا ، لا ينافي ما جاء به السمع ، وأن العلوم السمعية لا تنافي معقولا صحيحا .

وبناء عليه : فإذا سمعت شيئا من أنباء المخترعات والمكتشفات ونحو ذلك ، وثبت ذلك ثبوتا قطعيا ، فاعلم أنه لا يمكن أن يعارضه معارض من الكتاب والسنة ، فإن ظننت أن ثم تعارضا ، فمرد ذلك إلى فهمك للنص .

ولأضرب على ذلك مثلا : قد أخبر الله تعالى في كتابه فقال {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت} فربما تبادر إلى ذهن الإنسان ، أن الأرض بكاملها مسطحة ، وأنكر كونها كرية ، مع أنه من المعلوم المقطوع به ، الذي لا يختلف عليه اثنان من المتقدمين ، والمتأخرين من المحققين ، أن الأرض كرية ، فحينئذ ينبغي لنا أن نفهم قوله {وإلى الأرض كيف سطحت} بحسب نظر العين المجردة ، فإن العين المجردة تبدو لها الأرض مسطحة ، تنتهي بخط الأفق ، هذا هو المراد .

والدليل على كريتتها : أن الله تعالى قد قال {يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل} وإنما يُكَوَّر الليل والنهار على الأرض ، فلا بد أن تكون هي كُرِّيَّة ، فحينما يقع في ذهن الإنسان شيء من التعارض ، فإما أن يكون أتي من عدم صحة النقل ، أو أتي من عدم صراحة العقل .

متن :

إِذْ قَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا وَأَمْتَالِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا وَنَظَائِرِهِ مِمَّا قَدْ أُشْكَلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَيْثُ يَرَوْنَ مَا يُقَالُ: إِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ، مُخَالَفًا لِمَا يُقَالُ: إِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالسَّمْعِ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ أَنْ كَذَّبَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِعِلْمِهِ، حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ تَكَلَّمُوا فِي مُعَارَضَةِ الْفَلَّاسِفَةِ فِي [الْأَفْلاَكِ] بِكَلَامٍ لَيْسَ مَعَهُمْ بِهِ حُجَّةٌ، لَأَنَّ مِنْ شَرَعٍ وَلَا مِنْ عَقْلِ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ الْكَلَامَ مِنْ نَصْرِ الشَّرِيعَةِ، وَكَانَ مَا جَعَلُوهُ مَعْلُومًا بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ أَيْضًا.

شرح :

هذا ملحظ مهم ، وهو أنه ربما أخذت الحمية بعض المتكلمين ، ظنا منهم أنهم يذبون عن الشريعة وينصرون الشريعة ، فأنكروا أمورا ثابتة حسية ، ثابتة بالعقل أو بالحس ، وهذا منهج خطأ ، ولا يجوز أن يحملوه على نصوص الشريعة ، فإن نصوص الشريعة لا تسعفهم بذلك .

ومن ذلك أيها الإخوة : أن يُعلم علما قطعيا ، بأنه قد جرى كذا وكذا ، كأن يُعلم علما قطعيا بأن الإنسان قد وصل إلى القمر ، ونزل على سطح القمر ، ثم يقوم قائم بإيراد أدلة على امتناع ذلك ، ويحملها على نصوص الشريعة ، فإن هذا من الخطأ ، وإن كان الحامل له على ذلك حمية دينية ، أو نصرة للشريعة بظنه ، فإنه لا يجوز أن يقطع بمثل هذه الأمور دون بينة ، ويشين الشريعة بمثل ذلك ، له أن يقول : هذا لم يثبت عندي ، لكن ليس له أن ينفيه ، فثم نفي ، وثم إثبات ، فإن لم تتمكن من الإثبات ، فلا يحملنك ذلك على النفي .

متن :

وَأَمَّا الْمُتَفَلِّسَةُ وَأَتْبَاعُهُمْ، فَغَايَتُهُمْ أَنْ يَسْتَدْلُوا بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْحِسِّيَّاتِ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، مِثْلُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْبُخَارَ الْمُتَصَاعِدَ يَنْعَقِدُ سَحَابًا، وَأَنَّ السَّحَابَ إِذَا اصْطَلَّ حَدَّثَ عَنْهُ صَوْتٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، لَكِنْ عِلْمُهُمْ بِهَذَا كَعِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْمَنِيَّ يَصِيرُ فِي الرَّحِمِ، لَكِنْ مَا الْمَوْجِبُ لِأَنْ يَكُونَ الْمَنِيُّ الْمُتَشَابِهُ الْأَجْزَاءِ تَخَلَّقَ مِنْهُ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْمَنَافِعُ الْمُخْتَلِفَةُ، عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ الْمُحْكَمِ الْمُتَقَنَّ الَّذِي فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا بَهَرَ الْأَلْبَابَ.

وَكَذَلِكَ مَا الْمَوْجِبُ لِأَنْ يَكُونَ هَذَا الْهَوَاءُ، أَوْ الْبُخَارُ مُنْعَقِدًا سَحَابًا مُقَدَّرًا بِقَدْرِ مَخْصُوصٍ فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ عَلَى مَكَانٍ مُخْتَصٍّ بِهِ؟ وَيَنْزِلُ عَلَى قَوْمٍ عِنْدَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ فَيَسْقِيهِمْ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ لَا يَزِيدُ فِيهِلْكُوا وَلَا يَنْقُصُ فَيَعُوزُوا؟ وَمَا الْمَوْجِبُ لِأَنْ يُسَاقَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ اللَّيْلِ لَا تُمْطَرُ، أَوْ تُمْطَرُ مَطْرًا لَا يُغْنِيهَا كَأَرْضِ مِصْرَ إِذْ كَانَ الْمَطْرُ الْقَلِيلُ لَا يَكْفِيهَا، وَالْكَثِيرُ يَهْدِمُ أُبْنِيَّتَهَا قَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [السجدة: 27].

وَكَذَلِكَ السَّحَابُ الْمُتَحَرِّكُ، وَقَدْ عِلِمَ أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ فِيمَا أَنْ تَكُونَ قَسْرِيَّةً وَهِيَ تَابِعَةٌ لِلْقَاسِرِ، أَوْ طَبِيعِيَّةً. وَإِنَّمَا تَكُونُ إِذَا خَرَجَ الْمَطْبُوعُ عَنْ مَرَكَزِهِ فَيَطْلُبُ عَوْدَهُ إِلَيْهِ، أَوْ إِرَادِيَّةً، وَهِيَ الْأَصْلُ، فَجَمِيعُ الْحَرَكَاتِ تَابِعَةٌ لِلْحَرَكَةِ الْإِرَادِيَّةِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّتِي هِيَ {فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا} [النازعات: 5].

شرح :

بين الشيخ رحمه الله ، بأن هؤلاء المتفلسفة ، الذين أحاطوا علما بظواهر الأمور ، لا يحيطون علما بتفاصيلها ، فهم مثلا يمكن أن يدركوا بأن هذا السحاب ينشأ عن ارتفاع الأبخرة من المحيطات ، ثم انعقادها سحابا ، ثم ما ينشأ من اصطكاك ، أو ما يسمى بلغة العصر "تفريغ الشحنات" ، ينشأ عنه الرعد والبرق ، وما إلى ذلك ، لكن أنى لهم أن يحيطوا علما باختصاص الله عز وجل بتسيير هذه السحب عن طريق الرياح إلى أماكن معينة تحتاج إليها ، ونزولها بقدر معين ، كما أيضا أنهم يعلمون أن المنى إذا وقع في الرحم حصل من جرائه تلقيح وإخصاب ، لكن أنى لهم أن ينظروا إلى هذا الماء المتجانس ، ويدركوا كيف أن الله سبحانه وتعالى ، جعل هذه الخلايا متخصصة ، فكانت خلايا للعظام ، وخلايا للحم ، وخلايا للابصار ، وخلايا لكذا وكذا ، هذا أمر إنما يختص الله تعالى بعمله وتدبيره ، فغاية ما قد يدركه هؤلاء ، الذين سماهم الشيخ رحمه الله : متفلسفة

، ونسبيهم في عصرنا هذا بأنواع التسميات ، كأن يكونوا علماء في علم وظائف الأعضاء الفسيولوجية ، أو في علم الأجنة ، أو في علم الفلك ، أو في علم الجغرافيا ، أو غير ذلك ، غاية ما عندهم كما قال الله {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا} ، أما مقاصد ذلك وأسراره وتدبيره ، فهو إلى الله ، ولهذا يبعث الله الملك إلى الجنين ، فيتصور عليه الرحم ، ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد ، وهذا علم لا يمكن أن تطاله علوم هؤلاء ، فإن هذا من التدبير الإلهي الذي اختص الله تعالى به .

أما وصف الظاهر فإنه يمكن أن يدركوه ؛ ولهذا لا وجه أن يعترض عليهم في هذا ، أو ينكر عليهم بعض الحقائق الثابتة ، التي أدركوها بالتتبع والاستقراء ، والتجربة ، ونحو ذلك .

متن :

وغير ذلك مما أخبر الله به عن الملائكة، وفي المعقول ما يصدق ذلك.

فالكلام في هذا وأمثاله له موضع غير هذا.

والمقصود هنا أن نبين أن ما ذكر في السؤال زائل على كل تقدير، فيكون الكلام في الجواب مبنياً على حجج علمية لا تقليدية، ولا مسلمة، وإذا بينا حصول الجواب على كل تقدير كما سنوضحه لم يضرنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع وإن كنا نعلم ذلك لكن تحرير الجواب على تقدير دون تقدير، وإثبات ذلك فيه طول لا يحتاج إليه هنا؛ فإن الجواب إذا كان حاصلاً على كل تقدير كان أحسن وأوجز.

شرح :

الشيخ رحمه الله ، أبطل في المقام الأول ، قطع علماء الهيئة المتفلسفة أن العرش هو الفلك التاسع ، أو أنه هو مبدأ الحوادث ، وأن هذا رجم بالغيب ، وقول بلا علم ، هكذا اشتغل الشيخ رحمه الله في المقام الأول .

بقي بعد ذلك أن يقال : هل العرش محيط بالأفلاك إحاطة الفلك ؟ أو أنه مقبب فوقها ؟ هذا هو الذي يقول يمكن أن نتعامل معه على كل تقدير ، وهو ما يتكلم عنه في المقام الثاني .

المقام الثاني :

أن يقال: العرش سواء كان هو الفلك التاسع، أو جسماً محيطاً بالفلك التاسع، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض غير محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر، كما قال تعالى: {وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ والأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامةِ والسَّمَاوَاتُ مطوياتٌ بيمينِهِ سبحانه وتعالى عما يُشركُونَ} [الزمر: 67].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يقبضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطْوِي السَّمَاءَ بيمينِهِ، ثم يقول: أنا الملكُ أين ملوكُ الأرضِ؟ " وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: " يقبضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرضَ يومَ القيامةِ ويَطْوِي السَّمَاءَ بيمينِهِ ثم يقول: أنا الملكُ أين ملوكُ الأرضِ؟ "

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيَّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيَّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيَّنَ الْجَبَّارُونَ، أَيَّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ "

وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَقْسَمٍ: أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يَأْخُذُ اللَّهُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا: أَنَا الْمَلِكُ "، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمُنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي أَقُولُ: أَسَاقِطُ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! "

وَفِي لَفْظٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: " يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ، وَيَقْبِضُ بِيَدِهِ وَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا وَيَقُولُ: أَنَا الرَّحْمَنُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْقُدُّوسُ، أَنَا السَّلَامُ، أَنَا الْمُؤْمِنُ، أَنَا الْمُهَيَّمُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الَّذِي بَدَأَتِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا، أَنَا الَّذِي أَعَدَّتْهَا، أَيَّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ أَيَّنَ الْجَبَّارُونَ؟ " وَفِي لَفْظٍ: " أَيَّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيَّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ " وَيَمِيلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى يَمِينِهِ، وَعَلَى شِمَالِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمُنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطُ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ "

وَالْحَدِيثُ مَرْوِيٌّ فِي الصَّحِيحِ وَالْمَسَانِيدِ وَغَيْرِهَا بِالْأَفَاطِ يَصْنُقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَفِي بَعْضِ الْأَفَاطِ قَالَ: قَرَأَ عَلَى الْمُنْبَرِ: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الْآيَةَ [الزمر: 67]. قَالَ: " مَطْوِيَّةٌ فِي كَفِّهِ يَرْمِي بِهَا كَمَا يَرْمِي الْغُلَامُ بِالْكُرَةِ " وَفِي لَفْظٍ: " يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ فَيَجْعَلُهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ بِهِمَا هَكَذَا كَمَا تَقُولُ الصَّبِيَّانُ بِالْكُرَةِ: أَنَا اللَّهُ الْوَاحِدُ. " !

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقْبِضُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا فَمَا تَرَى طَرَفَاهُمَا بِيَدِهِ، وَفِي لَفْظٍ عَنْهُ: " مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ، إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ "، وَهَذِهِ الْأَثَارُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَهْرُؤُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، قَالَ: فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: " لَوْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } الْآيَةَ [الزمر: 67].

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمَفْسَّرَةِ لَهَا الْمُسْتَفِيضَةُ الَّتِي اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى صِحَّتِهَا وَتَلَقَّيْهَا بِالْقَبُولِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَعَ قَبْضِهِ لَهَا إِلَّا كَالشَّيْءِ الصَّغِيرِ فِي يَدِ أَحَدِنَا، حَتَّى يَذْخُوهَا كَمَا تَذْحَى الْكُرَةُ.

شرح :

هذا هو مراد الشيخ في هذا المقام الثاني ، وهو : بيان أن السماوات السبع ، والأرضين السبع ، بالنسبة للرحمن شيء تافه لا يذكر ، وان ما قد يتبادر إلى الأذهان ، والخيالات المريضة ، من كون الرب سبحانه وتعالى محيطا بها ، على صفة من الصفات ، وكيفية من الكيفيات ، ان هذا خيال فاسد ، وأنها بالنسبة للرحمن ، كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، كخردلة في كف أحدكم ، الخردلة هي الهباءة التي لا تكاد ترى ، كالتي نراها في عمود الشمس ، الذي ينزل من ثقب الباب ، فنرى فيه هذه الأشياء المتطايرة ، ماذا تكون في كف أحدنا ؟ لا شك أن هذا أمر تافه لا يكاد يذكر ؛ ولهذا حين حدث النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأحاديث ، أحاديث طي السماوات ، وقبض الأرض ، كان صلى الله عليه وسلم ، منفعلا غاية الانفعال ، متأثرا غاية التأثر ، حتى إنه يقبل بيده ويدبر ، حتى كان المنبر من أصله يهتز برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال ابن عمر : فقلت أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ كأنما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يشعر بهذا الأمر ، ولم يخش من أن يخرب به المنبر ، فكان يقبل بيده ويدبر ، وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، تحقيقا للإثبات ، فإنه فعل ما فعل ، مقارنا لذكر القبض والبسط تحقيقا للإثبات ، لأنه يعلم أن الذين بين يديه من الصحابة الكرام ، لا يتبادر إلى أذهانهم لوثة التشبيه ، فلذلك أخبر بما أخبر ، تحقيقا للإثبات ، وأن الله يقبض حقيقة ، وأن الله يطوي حقيقة ، وأن الله يمد حقيقة ، إلى غير ذلك من الألفاظ الواردة في النصوص.

وخلاصة الأمر : أن هذه المخلوقات على عظمها وكبرها ، هي بالنسبة للرحمن شيء تافه ، فلا يتبادر إلى الذهن معنى من المعاني الفاسدة ، كما سيذكر الشيخ رحمه الله لاحقا ، من أن يكون الله كريما محيطا بهذه الأشياء ، كما أنهم سؤال السائل ، فأنه سبحانه وتعالى ، أعلى وأجل من أن تكون إحاطته على هذا التصور البشري ، بل إنه سبحانه وتعالى عظيم كبير ، سبحانه وبحمده ، كل هذه المخلوقات والأفلاك الكرية ، هي شيء تافه بالنسبة له ، لا يلزم من ذلك أن يكون محيطا بها على النحو الذي يفهمه الأدمي.

ثم إن الشيخ رحمه الله ، نقل كلاما لعبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة بن الماجشون ، رحمه الله ، كلاما من كلام السلف المتقدمين ، فلنصغ إليه .

متن :

قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونِ الْإِمَامُ نَظِيرُ مَالِكٍ فِي كَلَامِهِ الْمَشْهُورِ الَّذِي رَدَّ فِيهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ خَالَفَهَا وَمَنْ أَوَّلَ كَلَامَهُ قَالَ: فَأَمَّا الَّذِي جَدَّ مَا وَصَفَ الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ تَعَمُّقًا وَتَكَلُّفًا، فَقَدْ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ، فَصَارَ يَسْتَدِلُّ بِزَعْمِهِ عَلَى جَدِّ مَا وَصَفَ الرَّبُّ وَسَمَّى مِنْ نَفْسِهِ، بَأَنَّ قَالَ: لَا بَدَّ إِنْ كَانَ لَهُ كَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَذَا، فَعَمِيَ عَنِ الْبَيِّنِ بِالْخَفِيِّ، فَجَدَّ مَا سَمَّى الرَّبُّ مِنْ نَفْسِهِ، بِصَمْتِ الرَّبِّ عَمَّا لَمْ يُسَمَّ مِنْهَا، فَلَمْ يَزَلْ يُمْلِي لَهُ الشَّيْطَانُ حَتَّى جَدَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} [القيامة: 22، 23]، فَقَالَ: لَا يَرَاهُ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَجَدَّ وَاللَّهِ أَفْضَلَ كَرَامَةِ اللَّهِ النَّبِيِّ أَكْرَمَ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ، مِنْ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَنَضْرَتِهِ إِيَّاهُمْ: {فِي مَفْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقَدَّرٍ} [القمر: 55]، وَقَدْ قَضَى أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ، فَهَمْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ يَنْضُرُونَ.

إِلَى أَنْ قَالَ: وَإِنَّمَا جَدَّ رُؤْيَا اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ الضَّالَّةِ الْمُضِلَّةِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ أَنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَأَوْا مِنْهُ مَا كَانُوا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مُؤْمِنِينَ، وَكَانَ لَهُ جَاحِدًا. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هَلْ تَضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ " قَالُوا: لَأ. قَالَ: " فَهَلْ تَضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ " قَالُوا: لَأ. قَالَ: " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ. "

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَمَلُّوا النَّارَ حَتَّى يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ، قَطُّ، وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ "، وَقَالَ لِنَابِتِ بْنِ قَيْسٍ: " قَدْ ضَحِكَ اللَّهُ مِمَّا فَعَلْتَ بِصَيْفِكَ الْبَارِحَةَ "، وَقَالَ فِيمَا بَلَّغْنَا عَنْهُ: " إِنَّ اللَّهَ يَضْحَكُ مِنْ أَرْكَامِكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِكُمْ "، وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ: إِنَّ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ؟ قَالَ: " نَعَمْ " قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا. فِي أَشْبَاهِ لِهَذَا مِمَّا لَمْ نَحْصِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48]، وَقَالَ: {وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]، وَقَالَ: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، وَقَالَ: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: 67].

شرح :

هذا الإمام ، عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون رحمه الله ، ساق هذه النصوص الدالة على إثبات الصفات ، وأغظ في النكير على من أنكرها من المعطلة ، الجاحدين ، ليبين أن الله سبحانه وتعالى ، متصف بصفات الكمال ، وأنه لا يجوز رد صفة أثبتها الله لنفسه ، لاستشناع يستشنع مبطل ، بل يجب إثباتها على الوجه اللائق به ، كما قال الرجل من العرب : لن نعدم من رب يضحك خيرا ، فهم فهما رائقا ، أثبت الله ما أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يتبادر إلى ذهنه لوثة تشبيهه ، ثم قال ابن الماجشون رحمه الله :

متن :

فَوَاللَّهِ مَا دَلَّهُمْ عَلَى عِظَمِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا تُحِيطُ بِهِ قَبْضَتُهُ، إِلَّا صِغَرُ نَظِيرِهَا مِنْهُمْ عِنْدَهُمْ إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي أُلْقِيَ فِي رُوعِهِمْ، وَخَلَقَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ قُلُوبَهُمْ فَمَا وَصَفَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ وَسَمَاءَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ سَمِيئًا كَمَا سَمَاءَهُ، وَلَمْ نَتَكَلَّفْ مِنْهُ عِلْمَ مَا سِوَاهُ، لَا هَذَا، وَلَا هَذَا، وَلَا نَجْحُدُ مَا وَصَفَ، وَلَا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ أَنْتَهَى.

شرح :

ما شاء الله ! هذا المنهج هو منهج أهل السنة والجماعة ، لم يزل ولا يزال ، وهو أن يثبت المرء إثباتا بلا تمثيل ، وأن ينزه الله تنزيها بلا تعطيل ، فلا يبالغ في الإثبات حتى يقع في التمثيل ، ولا يبالغ في التنزيه حتى يقع في التعطيل ، هذا كلام ابن الماجشون رحمه الله ، تأملوا تعليقه على الآيات والأحاديث التي ساقها ،

فقال : فوالله ما دلهم على عظم ما وصف به نفسه ، وما تحيط به قبضته ، إلا صغير نظيرها منهم عندهم " ، هذا يدل على ما يعبر به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، من مسألة الوجود المشترك في الأذهان ، أي وجود المعنى المشترك في الأذهان ، لكن حينما يضاف إلى الرب يكون له معنى يليق به ، وحينما يضاف إلى العبد ، يكون له معنى يليق به ، فذلك قال : ما دلهم على عظم ما وصف به نفسه ، من ذكر اليدين ، والعينين ، والضحك ، وغير ذلك ، إلا صغر نظيرها منهم عندهم ، إن ذلك الذي ألقى في روعهم ، وخلق على معرفة قلوبهم ، فما وصف الله من نفسه وسماه على رسوله سميناها كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، أي أننا لا نخوض في الكيفيات ، وإنما نثبت أصل المعنى ، لا هذا ولا هذا ، أي لا نقع في التكيف ، ولا نقع في التعطيل ، لا نجد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف .

متن :

فَوَاللَّهِ مَا دَلَّهُمْ عَلَى عِظَمِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا تُحِيطُ بِهِ قَبْضَتُهُ، إِلَّا صِغَرُ نَظِيرِهَا مِنْهُمْ عِنْدَهُمْ إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي أُلْقِيَ فِي رُوعِهِمْ، وَخَلَقَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ قُلُوبَهُمْ فَمَا وَصَفَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ وَسَمَّاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ سَمِينًا كَمَا سَمَّاهُ، وَلَمْ نَتَكَلَّفْ مِنْهُ عِلْمَ مَا سِوَاهُ، لَا هَذَا، وَلَا هَذَا، لَا نَجِدُ مَا وَصَفَ، وَلَا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ مَا لَمْ يَصِفْ أَنْتَهَى. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ كَالْكُرَةِ، وَهَذَا قَبْضُهُ لَهَا وَرَمِيَهُ بِهَا، وَإِنَّمَا بَيَّنَّا لَنَا مِنْ عِظَمَتِهِ وَصَفَ الْمَخْلُوقَاتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مَا يُعْقَلُ نَظِيرُهُ مِنَّا.

ثم الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر كما يفعل ذلك في يوم القيامة، وإن شاء لم يفعل ذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة، وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى، وإن شاء لم يفعل ذلك، وبكل حال فهو مبين لها ليس بمحايت لها.

ومن المعلوم أن الواحد منا والله المثل الأعلى إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته، وإن شاء لم يقبضها بل جعلها تحته، فهو في الحالتين مبين لها، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات كإحاطة الكرة بما فيها أو قيل: إنه فوقها وليس محيطاً بها، كوجه الأرض الذي نحن عليه بالنسبة إلى جوفها، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحته، أو غير ذلك.

فعلى التقديرين، يكون العرش فوق المخلوقات، والخالق سبحانه وتعالى فوقه، والعبد في توجهه إلى الله يقصد العلو دون التحت، وتَمَامُ هَذَا بَيَانٌ:

شرح :

هذه الجمل الأخيرة ، هي مراد الشيخ رحمه الله من هذا التقرير ، قال : فعلى التقديرين ، أي سواء قدرنا أن العرش محيط بالأفلاك الأخرى ، أو كان العرش كالقبة فوقها ، فعلى التقديرين ، يكون العرش فوق المخلوقات ، فعلى كلا التقديرين يكون فوق المخلوقات ، مثل : لو جعلت خردلة في كف أحدنا ، فإنه إما أن يقبض عليها يده ، فتكون في جوفها ، أو تكون خارجه فهو على كلا التقديرين مبين لها ليس بمحايت لها ،

والخالق سبحانه وتعالى فوق العرش ؛ لأنه أثبت فوقيته واستواءه عليه ، والعبد حينما يتوجه إلى خالقه بالدعاء ، كما ورد في أصل المسألة ، يقصد العلو دون التحت ، ولهذا انتقل إلى المقام الثالث .

المَقَامُ الثَّالِثُ :

وَهُوَ أَنْ نَقُولَ : لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ كَرِيًا كَالْأَفْلَاقِ ، وَيَكُونُ مُحِيطًا بِهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فَوْقَهَا وَلَيْسَ هُوَ كَرِيًا ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ بِاتِّفَاقٍ مَنْ يَعْلَمُ هَذَا أَنَّ الْأَفْلَاقَ مُسْتَدِيرَةٌ كَرِيَّةَ الشَّكْلِ ، وَأَنَّ الْجِهَةَ الْعُلْيَا هِيَ جِهَةُ الْمُحِيطِ ، وَهِيَ الْمُحَدَّبُ ، وَأَنَّ الْجِهَةَ السُّفْلَى هِيَ الْمَرْكَزُ ، وَلَيْسَ لِلْأَفْلَاقِ إِلَّا جِهَتَانِ : الْعُلُوُّ وَالسُّفْلُ فَقَطُّ .
وَأَمَّا الْجِهَاتُ السَّتْ فَهِيَ الْحَيَوَانَ ، فَإِنَّ لَهُ سِتَّ جَوَانِبَ ، يَوْمٌ جِهَةٌ فَتَكُونُ أَمَامَهُ ، وَيُخَلْفُ أُخْرَى فَتَكُونُ خَلْفَهُ ، وَجِهَةٌ تُحَازِي يَمِينَهُ ، وَجِهَةٌ تُحَازِي شِمَالَهُ ، وَجِهَةٌ تُحَازِي رَأْسَهُ ، وَجِهَةٌ تُحَازِي رِجْلَيْهِ ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْجِهَاتِ السَّتْ فِي نَفْسِهَا صِفَةٌ لَازِمَةٌ ، بَلْ هِيَ بِحَسَبِ النَّسْبَةِ وَالْإِضَافَةِ .

شرح :

أفادنا الشيخ رحمه الله ، أن الأفلاك المستديرة ، لا يتصور فيها إلا جهتان : العلو والسفل ، فما كان إلى فوق فهو العلو ، وأما السفلى فإنه ينتهي إلى المركز ، وليس فيها الجهات الست ، الجهات الست إنما تكون للأفراد ، فيقول أحدها : أمامه لما يؤمُّه ، وخلفه ، لما خلفه وراء ظهره ، ويمين ، لما كان عن يمينه ، وشمال ، لما كان عن شماله ، وفوق لما كان فوق رأسه ، وتحت ، لما كان تحت رجليه ، هذه الجهات الست إنما تتصور بالنسبة للحيوان ، للأفراد والأحياء ، أما الأفلاك فإنه لا يتصور فيها إلا جهتان : وهي جهة العلو وجهة السفلى ، التي تنتهي إلى مركز الفلك ، مركز الدائرة .

متن :

فَيَكُونُ يَمِينُ هَذَا مَا يَكُونُ شِمَالُ هَذَا ، وَيَكُونُ أَمَامَ هَذَا مَا يَكُونُ خَلْفَ هَذَا ، وَيَكُونُ فَوْقَ هَذَا مَا يَكُونُ تَحْتَ هَذَا .
لَكِنَّ جِهَةَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ لِلْأَفْلَاقِ لَا تَتَّخِذُ ، فَالْمُحِيطُ هُوَ الْعُلُوُّ وَالْمَرْكَزُ هُوَ السُّفْلُ ، مَعَ أَنَّ وَجْهَ الْأَرْضِ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ لِلنَّامِ ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ ، هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ النَّاسُ وَالْبَهَائِمُ وَالشَّجَرُ وَالنَّبَاتُ ، وَالْجِبَالُ وَالنَّهَارُ الْجَارِيَةُ .

فَأَمَّا النَّاحِيَةُ الْأُخْرَى مِنَ الْأَرْضِ فَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهَا ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ وَمَا يَتَّبِعُهُمْ ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ هُنَاكَ أَحَدًا لَكَانَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَلَمْ يَكُنْ مَنْ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ تَحْتَ مَنْ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ ، وَلَا مَنْ فِي هَذِهِ تَحْتَ مَنْ فِي هَذِهِ .

شرح :

هذا بحسب معلوم الشيخ رحمه الله ، في القرن السابع والثامن الميلادي لم تكن قد اكتشفت أستراليا ، ولا الأمريكتان ، فكان يقول : إن الناس على وجه الأرض ، الذين هم في المشرق وما اتصل به ، وأما الجهة الثانية ، فإنها بحر محيط ، ومع ذلك لو قدر ، وهو يقول : لو قدر ، وهو مقدر في الواقع ، ومع ذلك لو قدر

أن هناك أحدا ، لكان على ظهر الأرض ، بمعنى : أن الذين في جهة المشرق ، من يقابلهم في الجانب الآخر من الكرة الأرضية ، لا يصح أن يقال : هم تحتنا ، ولا هم يقولون عنا : إنا تحتهم ؛ لأن التحت ينتهي بمركز الأرض ، وبالتالي فلا يقال : إن ما نسكنه الآن هو أعلى الكرة الأرضية ، وما يقابله من الجهة الأخرى هو أسفل الكرة الأرضية ، لا ، كله علو ، كل من كان على ظهر الأرض ، فهو في جهة العلو ، والسفل إنما يكون في المركز ، فلا يقال : علو ، وسفل ، باعتبار الفوقي والتحتي ، هذا مراده رحمه الله بهذه الجملة .

متن :

كَمَا أَنَّ الْأَفْكَاءَ مُحِيطَةً بِالْمَرْكَزِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ جَانِبِي الْفَلَكَ تَحْتَ الْآخِرِ ، وَلَا الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ تَحْتَ الْجَنُوبِيِّ ، وَلَا بِالْعَكْسِ .

وَإِنَّ كَانَ الشَّمَالِيُّ هُوَ الظَّاهِرُ لَنَا فَوْقَ الْأَرْضِ وَارْتِفَاعُهُ بِحَسَبِ بُعْدِ النَّاسِ عَنِ خَطِّ السُّتُوَاءِ ، فَمَا كَانَ بُعْدُهُ عَنِ خَطِّ السُّتُوَاءِ ثَلَاثِينَ دَرَجَةً مَثَلًا كَانَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ عِنْدَهُ ثَلَاثِينَ دَرَجَةً ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى عَرْضَ الْبَلَدِ ، فَكَمَا أَنَّ جَوَانِبَ الْأَرْضِ الْمُحِيطَةَ بِهَا وَجَوَانِبَ الْفَلَكَ الْمُسْتَدِيرَةَ لَيْسَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَلَا تَحْتَهُ ، فَكَذَلِكَ مَنْ يَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ وَالْأَنْقَالِ لَا يَقَالُ : إِنَّهُ تَحْتَ أَوْلَيْكَ ، وَإِنَّمَا هَذَا خِيَالٌ يَتَخَيَّلُهُ الْإِنْسَانُ ، وَهُوَ تَحْتَ إِضَافِيٍّ ؛ كَمَا لَوْ كَانَتْ نَمْلَةٌ تَمْشِي تَحْتَ سَقْفٍ فَالسَّقْفُ فَوْقَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ رِجْلَاهَا تُحَادِيهِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ عَلِقَ مَنكُوسًا فَإِنَّهُ تَحْتَ السَّمَاءِ ، وَإِنْ كَانَتْ رِجْلَاهُ تَلِي السَّمَاءَ ، وَكَذَلِكَ يَتَوَهَّمُ الْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ فِي أَحَدِ جَانِبِي الْأَرْضِ ، أَوْ الْفَلَكَ أَنَّ الْجَانِبَ الْآخَرَ تَحْتَهُ ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَتَنَازَعُ فِيهِ اثْنَانِ ، مِمَّنْ يَقُولُ : إِنَّ الْأَفْكَاءَ مُسْتَدِيرَةً .

شرح :

أراد الشيخ أن يبين أن هذه التحتية تحتية نسبية ، وقد يقول قائل : ما شأن هذا البحث ؟ علاقة الأمر بما يتصل بقضية العلو ؟ فإنه سيتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى محيط بهذه الأشياء جميعها ، وبالتالي فإنه إذا كانت تحت ، مآله إلى المركز ، والجهة المضادة مآله إلى العلو ، فيبقى وصف العلو لله سبحانه وتعالى على كل تقدير ، فمن كان على ظهر الأرض من جهة الجزيرة العربية ، فإن جهة العلو له هي السماء ، ومن كان يقابله من الجانب الآخر من الكرة الأرضية ، لا يقال : إن ذلك سفلى في حقه ، فإن السفلى في حقه يرجع إلى جوف الأرض ، إلى مركز الأرض ، والسماء في حقه علو ، وذلك لكي يكشف الشيخ رحمه الله هذه الشائبة ، كيف يقال : إن الله سبحانه وتعالى يدعى من جهة العلو وما فضلها على بقية الجهات ؟ فالعلو المطلق لله سبحانه وتعالى من جميع الجهات ، والسفل منتهاه إلى مركز الأرض ، هذا هو سبب دخول الشيخ في هذه المباحث .

متن :

وَاسْتِدَارَةُ الْأَفْلَاقِ كَمَا أَنَّهُ قَوْلُ أَهْلِ الْهَيْئَةِ وَالْحِسَابِ فَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْمُنَادَى، وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ، وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوَازِيِّ وَغَيْرُهُمْ أَنَّهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 33]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَكَةٌ مِثْلُ فَلَكَةِ الْمِغْزَلِ.

شرح :

تعرفون المغزل ؟ المغزل يكون كهيئة المستدير ؛ لأن من تغزل تجمعه على هيئة مستديرة ، فيكون كريا ، فلذلك مثل ابن عباس الفلك بما كان معهودا عندهم ، مثل فلكة المغزل ، فالله تعالى ركب نظام الكون على هذه الفلكية ، بأن تكون الأجرام مستديرة ، كرية ، { وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون } فحركة الأجرام السماوية دائرية ، أو ما يشبه الدائرية ، ما يسمى بالبيضاوية .

متن :

الْفَلَكَ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْمُسْتَدِيرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: تَفَلَّكَ نَدْيُ الْجَارِيَةِ إِذَا اسْتَدَارَ، وَكُلُّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَفْلَاقَ مُسْتَدِيرَةٌ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُحِيطَ هُوَ الْعَالِي عَلَى الْمَرْكَزِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مَنْ يَكُونُ فِي الْفَلَكَ مِنْ نَاحِيَةٍ يَكُونُ تَحْتَهُ مَنْ فِي الْفَلَكَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَهُوَ مُتَوَهِّمٌ عِنْدَهُمْ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْعَرْشَ مُسْتَدِيرٌ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ كَانَ هُوَ أَعْلَاهَا، وَسَقْفَهَا وَهُوَ فَوْقَهَا مُطْلَقًا، فَلَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، وَإِلَى مَا فَوْقَهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا مِنَ الْعُلُوِّ، لَأَنَّ مِنْ جِهَاتِهِ الْبَاقِيَةَ أَصْلًا.

شرح :

إذن هذا أحد التقديرين ، انظروا كيف يسوق الشيخ الكلام ، ويرتبه ، ويقول : نذكر جميع التقديرات ؛ ليكون أحسن وأكمل ، فأخذ بالاحتمال الأول ، وهو : أن يكون العرش محيطا بالأفلاك إحاطة تامة ، إحاطة كرية ، فعلى هذا التقدير فإن هذا يدل على إثبات العلو ، قال : فإذا قدر أن العرش مستدير يحيط بالمخلوقات كان هو أعلاها ؛ لماذا كان أعلاها ؟ لأن الفلك ليس له إلا جهتان ، جهة العلو ، وهي باتجاه المحيط ، وجهة السفلى ، وهي باتجاه المركز ، وما دام أنه محيط بها ، فهو باتجاه المحيط ، إذن يكون العلو مستديما فيها ، فلذلك قال : وهو فوقها مطلقا ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه ، من الذي فوق العرش ؟ الله ، الإنسان إلا من العلو ، لا من جهاته الباقية أصلا .

متن :

وَمَنْ تَوَجَّهَ إِلَى الْفَلَكَ التَّاسِعِ أَوْ الثَّامِنِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْلَاقِ مِنْ غَيْرِ جِهَةِ الْعُلُوِّ، كَانَ جَاهِلًا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، فَكَيْفَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْعَرْشِ أَوْ إِلَى مَا فَوْقَهُ وَغَايَةَ مَا يُقَدَّرُ أَنْ يَكُونَ كَرَى الشَّكْلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا إِحْاطَةً تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ فِي يَدِهِ أَصْغَرُ مِنَ الْحِمَّصَةِ فِي يَدِ أَحَدِنَا.

وَأَمَّا قَوْلُ الْفَائِلِ: إِذَا كَانَ كَرِيًّا وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ مُحِيطٌ بِهِ بَائِنٌ عَنْهُ، فَمَا فَائِدَةُ أَنْ الْعَبْدَ يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ حِينَ دُعَاؤِهِ وَعِبَادَتِهِ؟ فَيَقْصِدُ الْعُلُوَّ دُونَ التَّحْتِ، فَلَا فَرْقَ حِينَئِذٍ وَقْتَ الدُّعَاءِ بَيْنَ قَصْدِ جِهَةِ الْعُلُوِّ وَغَيْرِهَا مِنْ الْجِهَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِالدَّاعِي، وَمَعَ هَذَا نَجِدُ فِي قُلُوبِنَا قَصْدًا يَطْلُبُ الْعُلُوَّ، لَا يَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَأَخْبِرُونَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا، وَقَدْ فَطَرْنَا عَلَيْهَا. فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا السُّؤَالُ إِنَّمَا وَرَدَ لِتَوَهُّمِ الْمُتَوَهُّمِ أَنَّ نِصْفَ الْفَلَكَ يَكُونُ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَتَحْتَ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْأَدْمِيَّةِ وَالْبَهَائِمِ، وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ، فَلَوْ كَانَ الْفَلَكَ تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْ جِهَةٍ لَكَانَ تَحْتَهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَكَانَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْفَلَكَ تَحْتَ الْأَرْضِ مُطْلَقًا، وَهَذَا قَلْبٌ لِلْحَقَائِقِ، إِذْ الْفَلَكَ هُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ مُطْلَقًا.

أَهْلُ الْهَيْئَةِ يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ مَخْرُوقَةٌ إِلَى نَاحِيَةِ أَرْجُلِنَا وَالْقِيَّ فِي الْخَرْقِ شَيْءٌ ثَقِيلٌ كَالْحَجَرِ وَنَحْوِهِ لَكَانَ يَنْتَهِي إِلَى الْمَرْكَزِ، حَتَّى لَوْ الْقِيَّ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ حَجَرٌ آخَرٌ لَالْتَقِيَا جَمِيعًا فِي الْمَرْكَزِ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ إِنْسَانَيْنِ لالتَقِيَا فِي الْمَرْكَزِ بَدَلَ الْحَجَرَيْنِ لَالْتَقَتَ رِجْلَاهُمَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا تَحْتَ صَاحِبِهِ، بَلْ كِلَاهُمَا فَوْقَ الْمَرْكَزِ، وَكِلَاهُمَا تَحْتَ الْفَلَكَ، كَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ رَجُلًا بِالْمَشْرِقِ فِي السَّمَاءِ أَوْ الْأَرْضِ وَرَجُلًا بِالْمَغْرِبِ فِي السَّمَاءِ أَوْ الْأَرْضِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا تَحْتَ الْآخَرِ، وَسَوَاءٌ كَانَ رَأْسُهُ أَوْ رِجْلَاهُ أَوْ بَطْنُهُ أَوْ ظَهْرُهُ أَوْ جَانِبُهُ مِمَّا يَلِي السَّمَاءَ أَوْ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ، وَإِذَا كَانَ مَطْلُوبٌ أَحَدَهُمَا مَا فَوْقَ الْفَلَكَ لَمْ يَطْلُبْهُ إِلَّا مِنَ الْجِهَةِ الْعُلْيَا، لَمْ يَطْلُبْهُ مِنْ جِهَةِ رِجْلَيْهِ أَوْ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ لَوْجَهَيْنِ:

شرح :

أي أن هذا الذي يكون على ظهر الأرض ، جهة العلو في حقه واحدة ، وهي : ما فوقه ، فالله سبحانه وتعالى يُطلب من جهة الفوق ، وينادى ويدعى من جهة الفوق ، ولا يكون ما يقابله من الجهة الأخرى تحتا ، إلا من باب توهم العقل فقط ، وإلا فالحقيقة ، ان كل من يدب على وجه الأرض ، فإنه لا يحتمل إلا أن يقول : السماء فوقنا والأرض تحتنا ، وبالتالي فإن الله تعالى يُنادى من جهة الفوق ؛ لما سيبين الشيخ رحمه الله ، من أن جهة العلو هي أقرب الجهات إلى الداعي .

متن :

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَطْلُوبَهُ مِنَ الْجِهَةِ الْعُلْيَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَلَوْ قُدِّرَ رَجُلٌ أَوْ مَلَكٌ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ إِلَى مَا فَوْقَ، كَانَ صُعُودُهُ مِمَّا يَلِي رَأْسَهُ أَقْرَبَ إِذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ، وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ: إِنَّهُ يَخْرِقُ الْأَرْضَ ثُمَّ يَصْعَدُ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَلَا أَنَّهُ يَذْهَبُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا، أَوْ أَمَامًا أَوْ خَلْفًا، إِلَى حَيْثُ أَمْكَنَ مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ يَصْعَدُ؛ لِأَنَّهُ أَيُّ مَكَانٍ ذَهَبَ إِلَيْهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَكَانِهِ أَوْ هُوَ دُونَهُ، وَكَانَ الْفَلَكَ فَوْقَهُ، فَيَكُونُ ذَهَابُهُ إِلَى الْجِهَاتِ الْخَمْسِ تَطْوِيلًا وَتَعَبًا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ.

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ أَنْ يُخَاطِبَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فَإِنَّهُ لَا يُخَاطِبُهُ إِلَّا مِنْ الْجِهَةِ الْعُلْيَا، مَعَ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ قَدْ تُشْرِقُ وَقَدْ تَغْرُبُ، فَتَتَحَرَّفُ عَنْ سَمْتِ الرَّأْسِ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ دَائِمًا لَا يَأْفُلُ وَلَا يَغِيبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

وَكَمَا أَنَّ الْحَرَكَةَ كَحَرَكَةِ الْحَجَرِ تَطْلُبُ مَرَكَزَهَا بِأَقْصَرِ طَرِيقٍ وَهُوَ الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ فَالطَّلَبُ الْإِرَادِيُّ الَّذِي يَقُومُ بِقُلُوبِ الْعِبَادِ كَيْفَ يَعْدِلُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْقَرِيبِ، إِلَى طَرِيقٍ مُنْحَرَفٍ طَوِيلٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى الصِّحَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، إِلَّا مَنْ اجْتَالَتُهُ الشَّيَاطِينُ فَأَخْرَجَتْهُ عَنِ فِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا.

شرح :

أجاب الشيخ بهذا الوجه والوجه الثاني الآتي ، عن تساؤل هذا المتسائل ، أنه إذا كان الله محيطا بكل شيء ، فلماذا نطلبه من جهة العلو ؟ فبين أن جهة العلو هي أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن البحث عن طريق اليمين أو الشمال ، أن هذا تطويل لا داعي له ، وأن النفوس مجبولة على أن تصل إلى مقصودها بأقرب الطرق ، وأن من قدر أنه أراد أن يخاطب الشمس أو القمر ، فإنه يخاطبها من جهة العلو ، لا يحتاج إلى أن يسلك سبلا يمنة أو يسرة .

متن :

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا قَصَدَ السُّفْلَ بِلَا عُلُوٍّ كَانَ يَنْتَهِي قَصْدُهُ إِلَى الْمَرْكَزِ وَإِنْ قَصَدَهُ أَمَامَهُ أَوْ وِرَاءَهُ أَوْ يَمِينَهُ أَوْ يَسَارَهُ، مِنْ غَيْرِ قَصْدِ الْعُلُوِّ، كَانَ مُنْتَهَى قَصْدِهِ أَجْزَاءَ الْهَوَاءِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَصْدِ الْعُلُوِّ ضَرُورَةً، سِوَاءَ قَصْدِ مَعَ ذَلِكَ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَوْ لَمْ يَقْصِدْهَا.

وَلَوْ فَرَضَ أَنَّهُ قَالَ: أَقْصِدُهُ مِنَ الْيَمِينِ مَعَ الْعُلُوِّ، أَوْ مِنَ السُّفْلِ مَعَ الْعُلُوِّ، كَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ أَحُجَّ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَأَذْهَبُ إِلَى خُرَاسَانَ، ثُمَّ أَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ، بَلْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقُولُ: أَصْعَدُ إِلَى الْأَفْكَالِكِ، فَأَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ أَصْعَدُ إِلَى الْفَلَكَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى، فَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُمَكِّنًا فِي الْمَقْدُورِ، لَكِنَّهُ مُسْتَحِيلٌ مِنْ جِهَةِ امْتِنَاعِ إِرَادَةِ الْقَاصِدِ لَهُ، وَهُوَ مُخَالَفٌ لِلْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الْقَاصِدَ يَطْلُبُ مَقْصُودَهُ بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مَقْصُودُهُ مَعْبُودَهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَإِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ كَانَ سَيْرُهُ مَعْكُوسًا مَعْكُوسًا.

أَيْضًا، فَإِنَّ هَذَا يَجْمَعُ فِي سَيْرِهِ وَقَصْدِهِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالِاتِّبَاتِ، بَيْنَ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الْمَقْصُودِ وَيَتَبَاعَدَ عَنْهُ، وَيُرِيدَهُ وَيَنْفِرَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ عَنْهُ أَبْعَدُ وَأَقْصَى وَعَدَلَ عَنِ الْوَجْهِ الْأَقْرَبِ الْأَدْنَى، كَانَ جَامِعًا بَيْنَ قَصْدَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ، فَلَا يَكُونُ قَصْدُهُ لَهُ تَامًا، إِذِ الْقَصْدُ التَّامُّ يَنْفِي نَقِيضَهُ وَضِدَّهُ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ.

فَإِنَّ الشَّخْصَ إِذَا كَانَ يُحِبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَحَبَّةً تَامَةً وَيَقْصِدُهُ أَوْ يُحِبُّ غَيْرَهُ مِمَّنْ يُحِبُّ سِوَاءَ كَانَتْ مَحَبَّتُهُ مَحْمُودَةً أَوْ مَذْمُومَةً مَتَى كَانَتْ الْمَحَبَّةُ تَامَةً، وَطَلَبَ الْمَحْبُوبُ طَلَبَهُ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ يَصِلُ إِلَيْهِ،

بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ مُتَرَدِّدَةً مِثْلُ: أَنْ يُحِبَّ مَا تَكَرَّهُ مَحَبَّةً فِي الدِّينِ، فَتَبْقَى شَهْوَتُهُ تَدْعُوهُ إِلَى قَصْدِهِ، وَعَقْلُهُ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَتَرَاهُ يَقْصِدُهُ مِنْ طَرِيقٍ بَعِيدٍ، كَمَا تَقُولُ الْعَامَّةُ: رَجُلٌ إِلَى قُدَّامٍ، وَرَجُلٌ إِلَى خَلْفٍ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي دِينِهِ نَقْصٌ، وَعَقْلُهُ يَأْمُرُهُ بِقَصْدِ الْمَسْجِدِ أَوْ الْجِهَادِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَصُودَاتِ الَّتِي تُحِبُّ فِي الدِّينِ وَتَكَرُّهَهَا النَّفْسُ، فَإِنَّهُ يَبْقَى قَاصِدًا لِذَلِكَ مِنْ طَرِيقٍ بَعِيدٍ مُتَبَاطِنًا فِي السَّيْرِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ. وَكَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ الْقَاصِدُ يُرِيدُ الذَّهَابَ بِنَفْسِهِ، بَلْ يُرِيدُ خِطَابَ الْمَقْصُودِ وَدُعَاءَهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُخَاطِبُهُ مِنْ أَقْرَبِ جِهَةٍ يَسْمَعُ دُعَاءَهُ مِنْهَا، وَيُنَالُ بِهِ مَقْصُودَهُ إِذَا كَانَ الْقَصْدُ تَامًا.

وَلَوْ كَانَ رَجُلٌ فِي مَكَانٍ عَالٍ، وَآخِرُ يُنَادِيهِ؛ لَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَنَادَاهُ، وَلَوْ حَطَّ رَأْسُهُ فِي بئرٍ وَنَادَاهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ صَوْتَهُ لَكَانَ هَذَا مُمَكِّنًا، لَكِنْ لَيْسَ فِي الْفِطْرَةِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَنْ يَكُونُ قَصْدُهُ إِسْمَاعَهُ مِنْ غَيْرِ مَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ، وَلَا يَفْعَلُ نَحْوَ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ ضَعْفِ الْقَصْدِ وَنَحْوِهِ.

شرح :

كل هذا السجال الذي يذكره الشيخ رحمه الله ، والأدلة والأمثلة ، يريد أن يوصل بها أن أقرب الطرق إلى الله عز وجل أن ينادى من جهة العلو ، وأن يكون قاطن الأرض حينما يناجي ربه سبحانه وتعالى ، يتجه إلى جهة العلو ، باعتبارها أقرب الطرق إلى الله عز وجل ، وأنه لا وجه لأن يتجه لجهة أخرى ، بدعوى أن الله محيط بكل شيء ، فما مثل ذلك إلا كرجل في المغرب ، أراد أن يحج بيت الله الحرام ، فقال : أذهب إلى خراسان ، ثم أرجع إلى مكة ، فإن هذا تطويل بلا فائدة ، وتضييع للوقت ، بل إنه في ذهابه هذا ، يبقى مترددا ، فهو يتباعد في الوقت الذي يبدو أنه يريد مقصوده ، هو يتباعد عنه من جهة أخرى ، فمدار هذا الكلام كله أن يقرب الشيخ رحمه الله ، هذه العقيدة ، عقيدة العلو ، إلى أذهان هؤلاء الذين شبهوا بعلم الهيئة ، وأن مرد علم الهيئة إلى إثبات أن أقرب الطرق إلى الله عز وجل ، بحكم إحاطته بخلقه ، التي لا تشبهها إحاطة ، هو أن يُطلب سبحانه وتعالى من جهة العلو ، ثم بعد أن ذكر ذلك ذكر إيرادا مشكلا ، وهو حديث الإدلاء .

نقف عند هذا الحديث [لو أن أحدكم أدلى بحبل لهبط على الله] نتحدث عنه إن شاء الله بعد .

متن :

حَدِيثُ الْإِدْلَاءِ الَّذِي رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ، مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ، فَإِنَّ الْحَسَنَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلَكِنْ يُقْوِيهِ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ الْمَرْفُوعُ، فَإِنْ كَانَ ثَابِتًا فَمَعْنَاهُ مُوَافِقٌ لِهَذَا، فَإِنَّ قَوْلَهُ: " لَوْ أَدَلِّي أَحَدُكُمْ بِحَبْلِ لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ " إِنَّمَا هُوَ تَقْدِيرٌ مَفْرُوضٌ، أَيْ لَوْ وَقَعَ الْإِدْلَاءُ لَوَقَعَ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُدَلِّي أَحَدٌ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ عَالٍ بِالذَّاتِ وَإِذَا أَهْبَطَ شَيْءٌ إِلَى جِهَةِ الْأَرْضِ وَقَفَ فِي الْمَرْكَزِ وَلَمْ يَصْعَدْ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى، لَكِنْ بِتَقْدِيرِ فَرَضِ الْإِدْلَاءِ، يَكُونُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْجَزَاءِ.

فَهَكَذَا مَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ: إِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْعَبْدَ يَقْصِدُهُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ. كَانَ هُوَ سُبْحَانَهُ يَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَكَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ، لَكِنَّ هَذَا مِمَّا تَمَنَعُ مِنْهُ الْفِطْرَةُ؛ لِأَنَّ قَصْدَ الشَّيْءِ الْقَصْدَ النَّامَّ يُنَافِي قَصْدَ ضِدِّهِ، فَكَمَا أَنَّ الْجِهَةَ الْعُلْيَا بِالذَّاتِ تَنَافِي الْجِهَةَ السُّفْلَى فَكَذَلِكَ قَصْدُ الْأَعْلَى بِالذَّاتِ يُنَافِي قَصْدَهُ مِنْ أَسْفَلَ، وَكَمَا أَنَّ مَا يَهْبِطُ إِلَى جَوْفِ الْأَرْضِ يَمْتَنِعُ صُعُودَهُ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ لِأَنَّهَا عَالِيَةٌ فَتَرُدُّ الْهَابِطَ بِعُلُوِّهَا، كَمَا أَنَّ الْجِهَةَ الْعُلْيَا مِنْ عِنْدِنَا تَرُدُّ مَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا مِنَ النَّقِيلِ، فَلَا يَصْعَدُ النَّقِيلُ إِلَّا بِرَافِعٍ يَرْفَعُهُ يُدَافِعُ بِهِ مَا فِي قُوَّتِهِ مِنَ الْهَبُوطِ، فَكَذَلِكَ مَا يَهْبِطُ مِنْ أَعْلَى الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَلِهَا وَهُوَ الْمَرْكَزُ لَا يَصْعَدُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ إِلَّا بِرَافِعٍ يَرْفَعُهُ، يُدَافِعُ بِهِ مَا فِي قُوَّتِهِ مِنَ الْهَبُوطِ إِلَى الْمَرْكَزِ، فَإِنَّ قُدِّرَ أَنَّ الدَّافِعَ أَقْوَى كَانَ صَاعِدًا بِهِ إِلَى الْفَلَكَ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَصَاعِدًا بِهِ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا يُسَمَّى هَبُوطًا بِاعْتِبَارِ مَا فِي أَدْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ مَا يُحَاذِي أَرْجُلَهُمْ يَكُونُ هَابِطًا، وَيُسَمَّى هَبُوطًا مَعَ تَسْمِيَةِ إِهْبَاطِهِ إِدْلَاءً، وَهُوَ إِنَّمَا يَكُونُ إِدْلَاءً حَقِيقِيًّا إِلَى الْمَرْكَزِ، وَمِنْ هُنَاكَ إِنَّمَا يَكُونُ مَدًّا لِلْحَبْلِ، وَالذَّلْوِ، لَا إِدْلَاءً لَهُ، لَكِنَّ الْجَزَاءَ وَالشَّرْطَ مُقَدَّرَانِ لَا مُحَقَّقَانِ.

شرح :

لما قرر الشيخ رحمه الله ما تقدم ، من تعيين الجهات ، وأن الأفلاك لا يُتصور لها إلا جهة علو ، وهو المحيط ، وجهة السفلى ، وهو المركز ، وأورد حديث الإدلاء ، ونقده من الناحية الحديثية ، بأنه حديث منقطع ، وقد استغربه الترمذي نفسه ، فحديث [لو أدلى أحدكم بحبل ، لهبط على الله] قد رواه الترمذي وفيه انقطاع ، فهو من الناحية الحديثية فيه علة ، ومن الناحية المعنوية قال الشيخ رحمه الله : إن هذا تقدير مفروض ، أي لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكنه لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئاً ، وذلك ؛ لأن علو الله ذاتي ، ولو قدر ثبوت هذا الحديث ، فإن محمله ، أنه لو أدلى به فبلغ المركز ، ثم اخترق من الجانب الآخر ، لعاد إلى جهة العلو ، فعاد إلى الله سبحانه وتعالى ، وسيذكر الشيخ رحمه الله تعالى هذا الفرض .

متن :

فَإِنَّهُ قَالَ: لَوْ أَدَلَّى لَهَبِطَ؛ أَي لَوْ فُرِضَ أَنَّ هُنَاكَ إِدْلَاءً لَفُرِضَ أَنَّ هُنَاكَ هُبُوطًا، وَهُوَ يَكُونُ إِدْلَاءً وَهُبُوطًا إِذَا قُدِّرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ تَحْتَ الْأَرْضِ وَهَذَا التَّقْدِيرُ مُنْتَفٍ، وَلَكِنَّ فَائِدَتَهُ بَيَانُ الْإِحَاطَةِ وَالْعُلُوِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَهَذَا الْمَفْرُوضُ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّنَا لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُدَلِّيَ وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَهْبِطَ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ لَكِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْرُقَ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ بِحَبْلِ، وَلَكِنَّ لَا يَكُونُ فِي حَقِّهِ إِدْلَاءً، فَلَا يَكُونُ فِي حَقِّهِ هُبُوطًا عَلَيْهِ.

كَمَا لَوْ خَرَقَ بِحَبْلِ مِنَ الْقُطْبِ إِلَى الْقُطْبِ، أَوْ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا، وَقَدَّرْنَا أَنَّ الْحَبْلَ مَرَّ فِي وَسْطِ الْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا فَرْقَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ مِنْ أَنْ يَخْرُقَ مِنْ جَانِبِ الْيَمِينِ مَنَّا إِلَى جَانِبِ الْيَسَارِ، أَوْ مِنْ جِهَةٍ أَمَامِنَا إِلَى جِهَةٍ خَلْفِنَا، أَوْ مِنْ جِهَةٍ رُؤُسِنَا إِلَى جِهَةٍ أَرْجُلِنَا إِذَا مَرَّ الْحَبْلُ بِالْأَرْضِ، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ قَدْ خَرَقَ بِالْحَبْلِ مِنْ جَانِبِ الْمُحِيطِ إِلَى جَانِبِهِ الْآخَرَ، مَعَ خَرَقِ الْمَرْكَزِ، وَبِتَقْدِيرِ

إِحَاطَةً قَبْضَتِهِ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَالْحَبْلُ الَّذِي قُدِّرَ أَنَّهُ خَرَقَ بِهِ الْعَالَمَ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَلَا يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ إِدْلَاءً وَلَا هُبُوطًا.

شرح :

أي أن التعبير بالإدلاء والهبوط من جهة العبد نفسه ، أما من جهة الرب سبحانه ، فلا يسمى ذلك ؛ لأن علوه ذاتي ، ولكن المراد بذلك الإيصال.

متن :

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا فَإِنَّ مَا تَحْتَ أَرْجُلِنَا تَحْتَ لَنَا، وَمَا فَوْقَ رُؤُوسِنَا فَوْقَ لَنَا، وَمَا نُذَلِّيهِ مِنْ نَاحِيَةِ رُؤُوسِنَا إِلَى نَاحِيَةِ أَرْجُلِنَا نَتَخَيَّلُ أَنَّهُ هَابِطٌ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ أَحَدَنَا أَدَلَّى بِحَبْلِ كَانَ هَابِطًا عَلَى مَا هُنَاكَ، لَكِنَّ هَذَا تَقْدِيرٌ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّنَا، وَالْمَقْصُودُ بِهِ بَيَانُ إِحَاطَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا بَيَّنَّ أَنَّهُ يَقْبِضُ السَّمَوَاتِ وَيَطْوِي الْأَرْضَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ بَيَانُ إِحَاطَتِهِ بِالْمَخْلُوقَاتِ.

شرح :

إذن صار الكلام حول هذا الحديث من جانبين :

- من جانب المتن : وهو نقده من الناحية الحديثية ، بالانقطاع أو الغرابة أو غير ذلك مما يُعل به العلماء الأحاديث .

- وأما من الناحية الموضوعية المعنوية : فإنه على فرض صحته ، فالمراد به الإيصال ، أنه يصل إلى الله عز وجل ؛ لأن الله محيط بكل شيء ، فلو قُدر فرضاً أنه وقع هذا الاختراق ، حتى بلغ مركز الأرض ، ثم خرج من الجانب الآخر ، فإن السماوات محيطة بالأرض ، والله محيط بالجميع ، فيكون المراد أن الله تعالى محيط بكل شيء ، لا يخرج شيء عن ملكه .

متن :

وَلِهَذَا قَرَأَ فِي تَمَامِ هَذَا الْحَدِيثِ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

شرح :

وهذه الآية التي تضمنت الأسماء الأربعة ، دلت على الإحاطة الزمانية والمكانية ، هذه أسماء أربعة ، ثابتة لله عز وجل {هو الأول والآخر} وهذان الاسمان دلا على الإحاطة الزمانية ، وذلك ؛ أن الأول كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم [اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء] فهذه إحاطة زمانية ، {والظاهر والباطن} دلا على الإحاطة المكانية ؛ حيث فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الاسمين بقوله [اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء] .

متن :

[وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ، فَإِنَّ التَّرْمِذِيَّ لَمَّا رَوَاهُ قَالَ: وَفَسَّرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ هَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ، وَبَعْضُ الْحَوْلِيِّ وَالْإِتْحَادِيَّةِ يَظُنُّ أَنَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى قَوْلِهِمُ الْبَاطِلِ، وَهُوَ أَنَّهُ حَالٌ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَنَّ وُجُودَهُ وَوُجُودُ الْأَمْكَانَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

شرح :

تعالى الله عما يقولون ، الحلولية المقصود بهم : حلولية الجهمية ، الذين يزعمون أن الله تعالى في كل مكان ، والاتحادية هم اتحادية الصوفية ، الذين يزعمون أن الله متحد بالأشياء ، فيقولون : هذا الحديث دليل لنا ؛ إذ يعني أن الله في كل مكان ، وأن الله متحد بكل شيء ، تعالى الله عما يقولون علوا عظيما .

متن :

وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّ الْحَدِيثَ لَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِنْ كَانَ ثَابِتًا، فَإِنَّ قَوْلَهُ: " لَوْ أَدْلَى بِحَبْلِ لَهَبٍ " يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمُدَلِّيِّ وَلَا فِي الْحَبْلِ، وَلَا فِي الدَّلْوِ وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنَّهَا تَقْتَضِي أَنَّهُ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَكَذَلِكَ تَأْوِيلُهُ بِالْعِلْمِ تَأْوِيلٌ ظَاهِرٌ الْفَسَادِ، مَنْ جِنْسِ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّةِ، بَلْ بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ يَكُونُ دَالًّا عَلَى الْإِلْحَاطَةِ. وَالْإِلْحَاطَةُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَيْهَا، وَعُلِمَ أَنَّهَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَيْسَ فِي إِثْبَاتِهَا فِي الْجُمْلَةِ مَا يُخَالِفُ الْعَقْلَ وَلَا الشَّرْعَ، لَكِنْ لَا نَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا نَعْلَمُ، وَمَا لَا نَعْلَمُهُ أَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَمَا كَانَ مُقَدِّمَةً دَلِيلِهِ مَشْكُوكًا فِيهَا عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ، كَانَ حَقُّهُ أَنْ يَشْكَّ فِيهِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ عَمَّا لَمْ يَعْلَمْ. وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا، فَكَذَلِكَ قَاصِدُهُ يَقْصِدُهُ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَا فَعَلْنَا لَكُنَّا قَاصِدِينَ لَهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، لَكِنْ قَصَدْنَا لَهُ بِالْقَصْدِ إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّنَا؛ لِأَنَّ الْقَصْدَ التَّامَّ الْجَازِمَ يُوجِبُ طَلَبَ الْمَقْصُودِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.

وَلِهَذَا قَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ لَمَّا تَكَلَّمْنَا عَلَى تَنَازُعِ النَّاسِ فِي النِّيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الْفِعْلِ هَلْ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا أَمْ لَا يُعَاقَبُ؟ بَيَّنَّا أَنَّ الْإِرَادَةَ الْجَازِمَةَ تَوْجِبُ أَنْ يَفْعَلَ الْمُرِيدُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُرَادِ، وَمَتَى لَمْ يَفْعَلْ مَقْدُورَهُ لَمْ تَكُنْ إِرَادَتُهُ جَازِمَةً، بَلْ يَكُونُ هَمًّا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ تَرَكَهَا لِلَّهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ.

شرح

دخول هذا المبحث في كلام الشيخ رحمه الله ، من جهة أن الداعي يريد مقصوده ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان صادق الطلب ، صادق النية ، فإنه يتوجه إلى الله بأقرب طريق ، وهو طريق العلو ، بطلب العلو ، فهذا هو الذي أدخل الشيخ في مسألة الإرادة والقصد التام ، وحديث [من هم بحسنة ومن هم بسبيئة .]

متن :

وَلِهَذَا وَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَمِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَمِّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَلْهَمُ هَمَّانِ: هَمُّ خَطَرَاتٍ وَهَمُّ إِصْرَارٍ. فَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَمًّا تَرَكَهُ لِلَّهِ فَأَنْثِبَ عَلَيْهِ، وَتِلْكَ هَمَّتْ هَمُّ إِصْرَارٍ فَفَعَلَتْ مَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ مُرَادِهَا، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهَا الْمَطْلُوبُ.

شرح :

إذن فرق بين الهمين : هم يوسف عليه السلام هم خَطْرَةٌ ، وقع في نفسه ما يقع في نفوس بني آدم ، عند الاستتارة والشهوة الطبيعية الغريزية ، لكنه لما لم يكن هما تاما وقصدا جازما ، صرفه الله تعالى عنه لما رأى برهان ربه ، وأما المرأة ، فإن همها وطلبها كان تاما جازما ، فلذلك سعت في تحصيل مرادها بما قدرت عليه ، وإن لم يتم لها مرادها .

وأما قول بعض المفسرين {ولقد همت به} أي : تريد به الزنا ، {وهم بها} يريد ضربها ، فتكلف ، ليس مقصود همه بها أنه يريد ضربها ، كلا ، بل هو آدمي وقع في نفسه ما يقع في نفوس بني آدم ، ولهذا قال الله {لولا أن رأى برهان ربه} والذي يريد الضرب لا حاجة أن يرى برهان ربه ليصرفه عن تأديبها وزجرها وعقوبتها ، وإنما برهان ربه ما قام في قلبه من خشيته وتقواه ، هو الذي صرفه عن السوء والفحشاء .

متن :

وَالَّذِينَ قَالُوا: يُعَاقَبُ بِالْإِرَادَةِ، احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: " إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ "، وَفِي رِوَايَةٍ: " إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ ". فَهَذَا أَرَادَ إِرَادَةً جَازِمَةً، وَفَعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْ مَطْلُوبَهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَمَتَى كَانَ الْقَصْدُ جَازِمًا، لَزِمَ أَنْ يَفْعَلَ الْقَاصِدُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ حُصُولِ الْمَقْصُودِ، فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى حُصُولِ مَقْصُودِهِ بِطَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ امْتَنَعَ مَعَ الْقَصْدِ النَّامِّ أَنْ يُحْصَلَهُ بِطَرِيقٍ مَعْكُوسٍ مِنْ بَعِيدٍ.

فَهَذَا امْتَنَعَ فِي فِعْلِ الْعِبَادَةِ عِنْدَ ضَرُورَتِهِمْ، وَدَعَائِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَتَمَامِ قَصْدِهِمْ لَهُ أَلَّا يَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ إِلَّا تَوَجُّهًا مُسْتَقِيمًا، فَيَتَوَجَّهُوا إِلَى الْعُلُوِّ دُونَ سَائِرِ الْجِهَاتِ؛ لِأَنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الْقَرِيبُ. وَمَا سِوَاهُ فِيهِ مِنَ الْبُعْدِ وَالنَّحْرَافِ وَالطُّولِ مَا فِيهِ، فَمَعَ الْقَصْدِ النَّامِّ الَّذِي هُوَ حَالُ الدَّاعِي الْعَابِدِ، وَالسَّائِلِ الْمُضْطَّرِّ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ إِلَّا إِلَى الْعُلُوِّ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى، كَمَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُدْلِيَ بِحَبْلِ يَهْبِطُ عَلَيْهِ، فَهَذَا هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرِيعَةِ فَإِنَّ الرُّسُلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعَثُوا بِتَكْمِيلِ الْفِطْرَةِ وَتَقْرِيرِهَا، لَا بِتَبْدِيلِ الْفِطْرَةِ وَتَغْيِيرِهَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: " كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبُوهُ يَهُودِيًّا أَوْ يُنَصْرَانِيًّا أَوْ يُمَجْسَانِيًّا، كَمَا تَنْتَجِ الْبُهَيْمَةُ بِبُهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ " .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30]، فَجَاءَتْ الشَّرِيعَةُ فِي الْعِبَادَةِ وَالِدُّعَاءِ بِمَا يُوَافِقُ الْفِطْرَةَ، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الضَّلَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ الْمُتَفَلِّسَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ غَيَّرُوا الْفِطْرَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ جَمِيعًا وَخَالَفُوا الْعَقْلَ وَالنَّقْلَ، كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

شرح :

قوله "كما تنتج البهيمة" هذا الفعل دائما مبني للمجهول "تنتج".
 قول الشيخ على سبيل التفریع : "وأما من جهة الشريعة" ، إشارة إلى ان ما تقدم إنما هو من جهة العقل والفطرة ، فإنه قد قرر هذه المسائل ، وبحثها من الناحية العقلية ، ومن الناحية الفطرية ، وانتهى إلى ان أقر طريق للوصول إلى المقصود هو الخط المستقيم ، فإنه أقرب مسافة بين نقطتين ، وبالتالي فإن الداعي إذا دعا ، فإنه يتجه إلى العلو مباشرة ، لا يلتفت يمينا ولا يسرة ، وبين بعد ذلك أن رسل الله جاؤوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتبديلها وتغييرها ، فالله تعالى قد فطر العباد على الفطرة السوية الحسنة ، [كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه] هذا هو انحراف الفطرة ، فتكون مهمة الأنبياء والمرسلين ، هو رد الناس إلى الفطرة الأصلية ، وتكميلها ، وتقريرها ، وترشيدها بنور الكتاب والسنة ، فهذا ما بُعث به أنبياء الله ؛ ولهذا جاءت النصوص في هذا الباب موافقة للفطرة ، كما في الأحاديث التي سيذكر الشيخ الآن .

متن :

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقُ قَبْلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ "،
 وَفِي رِوَايَةٍ: " أَنَّهُ أَذِنَ أَنْ يَبْصُقَ فِي ثَوْبِهِ."

وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينِ الْمَشْهُورِ، الَّذِي رَوَاهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَخِلُو بِهِ رَبَّهُ. فَقَالَ لَهُ أَبُو رَزِينٍ: كَيْفَ يَسْعُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ جَمِيعٌ؟ فَقَالَ: " سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آءِ اللَّهِ! هَذَا الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِيًا بِهِ، فَاللَّهُ أَكْبَرُ."
 وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَى الْقَمَرِ وَخَاطَبَهُ إِذَا قَدَّرَ أَنْ يُخَاطَبَهُ لَا يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ إِلَّا بِوَجْهِهِ مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَهُ، فَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ لَهُ بِوَجْهِهِ مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَهُ، وَمِنْ الْمُتَمَتِّعِ فِي الْفِطْرَةِ أَنْ يَسْتَدْبِرَهُ وَيُخَاطَبُهُ مَعَ قَصْدِهِ التَّامِّ لَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُمَكِّنًا، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ لَيْسَ مَقْصُودُهُ مُخَاطَبَتَهُ، كَمَا يَفْعَلُ مَنْ لَيْسَ مَقْصُودُهُ التَّوَجُّهَ إِلَى شَخْصٍ بِخِطَابٍ، فَيُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِهِ وَيُخَاطَبُ غَيْرَهُ، لَيْسَمَعَ هُوَ الْخِطَابَ، فَأَمَّا مَعَ زَوَالِ الْمَانِعِ فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ يَسْتَقْبَلُ رَبَّهُ وَهُوَ فَوْقَهُ، فَيَدْعُوهُ مِنْ تَلْقَائِهِ لَا مِنْ يَمِينِهِ وَلَا مِنْ شِمَالِهِ، وَيَدْعُوهُ مِنَ الْعُلُوِّ لَا مِنَ السُّفْلِ، كَمَا إِذَا قَدَّرَ أَنْ يَخَاطَبَ الْقَمَرَ.

شرح :

أراد الشيخ رحمه الله بهذا ، ان يبين أنه لا منافاة بين المقابلة وبين العلو ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ، نهى أن يبصق الرجل في الصلاة تلقاء وجهه ، وعلل ذلك بأن الله تلقاء وجهه ، وكونه تلقاء وجهه ، لا ينفي صفة العلو ؛ لأن المقابلة لا تنفي العلو ، فهذا أنت مثلا إذا طلعت الشمس ، وبزغت على خط الأفق ، تقول :

الشمس أمامي ، أو قبالتني ، أو القمر ، ومع ذلك هي في السماء ، فلا منافاة بين العلو والمقابلة ، وهكذا القمر ، فإن القمر يكون في السماء ، ولو أن قدر أن أحدا يخاطبه ، لتوجه إليه بوجهه ، فالمواجهة والعلو لا تتنافي بينهما ، فهذا يدل على ان الله سبحانه وبحمده في العلو ، وأن الطريق لمناجاته ودعائه أن يتوجه إليه من جهة العلو ، لا عن يمين ولا عن شمال ، فلأجل ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يبصق المصلي تلقاء وجهه ، لأن ذلك خلاف الأدب ، فكما أن الأدمي مع الأدمي ، لو قدر أنهما تقابلا ، لم يكن لائقا أن يبصق بين يديه ، وعد ذلك مذموما ، فالله أحق أن يُكرم.

متن :

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: " لَيَبْتَهَيْنَ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ فِي الصَّلَاةِ أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبْصَارُهُمْ "، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ رَفْعَ الْمُصَلِّي بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَرْفَعُ بَصْرَهُ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: 1، 2] فَكَانَ بَصْرُهُ لَا يُجَاوِزُ مَوْضِعَ سُجُودِهِ، فَهَذَا مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ تَكْمِيلًا لِلْفِطْرَةِ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ السَّائِلَ الَّذِي يُؤْمَرُ بِالْخُشُوعِ وَهُوَ الذَّلُّ وَالسُّكُوتُ لَا يُنَاسِبُ حَالَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نَاحِيَةٍ مَن يَدْعُوهُ وَيَسْأَلُهُ بَلْ يُنَاسِبُ حَالَهُ الْإِطْرَاقُ، وَغَضُّ بَصْرِهِ أَمَامَهُ.

وَلَيْسَ نَهْيُ الْمُصَلِّي عَنْ رَفْعِ بَصْرِهِ فِي الصَّلَاةِ رَدًّا عَلَى أَهْلِ الْإِتْبَاتِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ جُهَّالِ الْجَهْمِيَّةِ، فَإِنَّ الْجَهْمِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَرْشِ وَقَعْرِ الْبَحْرِ، فَالْجَمِيعُ سَوَاءٌ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُنَهَ عَنْ رَفْعِ الْبَصْرِ إِلَى جِهَةٍ وَيُؤْمَرُ بِرَدِّهِ إِلَى أُخْرَى، لِأَنَّ هَذِهِ وَهَذِهِ عِنْدَ الْجَهْمِيَّةِ سَوَاءٌ. أَيْضًا، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَ النَّهْيُ عَنْ رَفْعِ الْبَصْرِ شَامِلًا لِجَمِيعِ أَحْوَالِ الْعَبْدِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: 144]، فَلَيْسَ الْعَبْدُ يُنَهَى عَنْ رَفْعِ بَصْرِهِ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا نُهِيَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُؤْمَرُ فِيهِ بِالْخُشُوعِ؛ لِأَنَّ خَفْضَ الْبَصْرِ مِنْ تَمَامِ الْخُشُوعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ} [القمر: 7]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى: 45].

أَيْضًا، فَلَوْ كَانَ النَّهْيُ عَنْ رَفْعِ الْبَصْرِ إِلَى السَّمَاءِ وَلَيْسَ فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ، لَكَانَ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَرَدِّهِ إِلَى جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَلَوْ كَانَ مَقْصُودُهُ أَنْ يَنْهَى النَّاسَ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، أَوْ يَقْصِدُوا بِقُلُوبِهِمُ التَّوَجُّهَ إِلَى الْعُلُوِّ، لَبَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ سَائِرَ الْأَحْكَامِ .

شرح :

إذن بحمد الله ، تبين بهذا أن هذا النهي من النبي صلى الله عليه وسلم ، الثابت في الصحيحين [ليبتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم] أن المقصود منه كمال الأدب ، والخشوع لله عز وجل حال مناجاته ، وتبين به أن رفع البصر يعد من الكبائر ؛ لأن الكبيرة كما في تعريفها الصحيح أنها : ما

ترتب عليه حد في الدنيا ، أو وعيد في الآخرة ، أو اقترن به لعن أو غضب أو براءة " فهذا يدخل فيه ؛ لأن فيه وعيدا [أو لا ترجع إليهم .]

ونحن نرى - وللأسف - بعض الناس حينما يصلي ، يرفع بصره إلى السماء ، لا سيما إذا رفعوا من الركوع ، تجد أحدهم يرفع من الركوع ، قائلاً : سمع الله لمن حمده ، ثم يشخص ببصره إلى السماء ، فمثل هؤلاء يُنكر عليهم ، ويؤمرون بخفض أبصارهم ، وتصويبها إلى موضع سجودهم .

وقد حاول الجهمية ، أن يستدلوا بهذا الحديث على أن الله ليس في السماء ، ونقض الشيخ رحمه الله ، فهمهم الخاطيء هذا من أوجه عدة ، وأن نهى المصلي عن رفع بصره في السماء ، ليس فيه رد على أهل الإثبات ، الذين يثبتون أن الله سبحانه وتعالى ، فوق سماواته مستو على عرشه ، والجهمية توهمت أن هذا إبطال لعقيدة العلو ، والأمر ليس كذلك ، بل هو من كمال الأدب والخشوع والذل مع الله ، ألا يحق النظر في جهته حال مناجاته ، فإن هذا هو مقتضى كمال الأدب ، ولو كان الأمر كما توهمته الجهمية أو ادعته ، لم يكن عندهم فرق بين السماء والأرض ؛ لأنهم لا يثبتون العلو لله عز وجل ، بل يزعمون أن الله في كل مكان ؛ إذن لكان لزاماً أن يغض بصره عن كل شيء ، وهذا ممتنع ، وذكر رحمه الله أوجه أخرى بينة في هذا الأمر .

ثم ختم هذه الرسالة بكلام متين ، على سنن السلف المتقدمين ، فقال رحمه الله :

متن :

فَكَيْفَ وَلَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا فِي قَوْلِ سَلَفِ الْأُمَّةِ حَرْفٌ وَاحِدٌ يُذَكِّرُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ السَّمَاءِ، أَوْ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مَحَايِثَ لَهُ وَلَا مُبَايِنَ لَهُ، أَوْ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُ الْعَبْدُ إِذَا دَعَاهُ الْعُلُوُّ دُونَ سَائِرِ الْجِهَاتِ؟! بَلْ جَمِيعُ مَا يَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ مِنَ النَّفْيِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ لَيْسَ مَعَهُمْ بِهِ حَرْفٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا قَوْلِ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَنْمَتِهَا، بَلْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَقْوَالُ السَّلَفِ وَالْأَنْمَةِ مَمْلُوءَةٌ بِمَا يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ.

شرح :

كل هذه الجمل التي برأ الشيخ رحمه الله السلف منها ، إنما تدعيها الجهمية ، وهي : أنهم يقولون : ليس فوق السماء ، ولا داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا محايث له ، ولا مباين له ، وأنواع ذلك من النفي والسلوب ، فإن هذا ليس من طريقة القرآن ، ولا من طريقة السلف في التقرير ، هذا النفي المنتاب : ليس بكذا وليس بكذا ، فإنه يفضي إلى العدم ، كما قال ابن المبارك : إنما يحاولون أن ليس فوق السماء إله ، وأيضا من كلماتهم الباطلة : أنه لا يقصد العبد إذا دعاه ، العلو دون سائر الجهات ، بل نقول : كلا ، بل يقصد العبد إذا دعاه العلو ، بل إنه من باطلهم يقولون : لا يجوز أن يشير بإصبعه إلى السماء ، ومن فعل فإنه تكسر إصبعه ، هكذا قالوا والعياذ بالله ، مع أن نبينا صلى الله عليه وسلم ، في حجة الوداع ، والناس بين يديه ، مائة ألف أو يزيدون ، كان يقول [اللهم هل بلغت ، اللهم فاشهد ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد] يرفع إصبعه إلى السماء

وينكث بها على الناس ، إلى من يشير ؟ يشير إلى جهة العلو ، إلى جهة الرب سبحانه وتعالى ، له العلو المطلق .

وهكذا الجارية على فطرتها ، لما قال لها : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : [أعتقها فإنها مؤمنة] فهذا مقتضى الفطرة ، كما هو منطوق الكتاب والسنة .

متن :

وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ كُفْرٌ، فَنُؤْوِلُ، أَوْ نَفُوضُ، فَعَلَى قَوْلِهِمْ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ وَالْأئِمَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا مَا ظَاهَرَهُ الْكُفْرُ، وَلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ .

شرح:

بمعنى أن من اللوازم الباطلة ، التي تلزم على طريقة هؤلاء المتكلمين ، ان يكون ظاهر الكتاب والسنة الكفر ، إذا كانوا يعتقدون أن إثبات علو الله عز وجل ، ومباينته لخلقه أنه كفر ، فيلزمهم من جراء ذلك ، أن يقولوا : إن ظواهر النصوص ، تدل على الكفر ، وقد فاه بهذا القول المنكر القبيح بعضهم ، وقال : إن ظواهر الكتاب والسنة تدل على الكفر الصراح ، والعياذ بالله ، {كبرت كلمة تخرج من أفواههم} ، فاه بها بعضهم ، وحفظت في كتبهم ، وادعى بأن ظواهر الكتاب والسنة ، تدل على الكفر الصراح ، وأنه بناء عليه لا بد من تأويل أو تفويض ، وهو المسلك الذي سلوكه وأنشدوه ، وقالوا :

وكل نص أوهم التشبيها ،، فوضه أو أول ورم تنزيها

فوقع في قلوبهم ، أن النصوص دالة على الكفر الصراح ، وعجبا أن يكون الكتاب والسنة الدالان على الهدى والحق ، والبيان ، ينقلبان إلى عكس ذلك ، لكن هكذا العقول المريضة ، يستزلها الشيطان ، حتى تأتي بهذه السخافات .

متن :

وَالسَّلْبُ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَوْ خَوَاصِّ الْمُؤْمِنِينَ اعْتِقَادُهُ عِنْدَهُمْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ رَسُولٌ، وَلَا نَبِيٌّ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالَّذِي نَطَقَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَوَرَّثَتْهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْحَقُّ، بَلْ هُوَ مُخَالَفٌ لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ، بَلْ وَحْدَانَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ .

شرح :

ونحن نتحدى هؤلاء المتكلمين ، الذين قرروا هذه الجمل ، من نفي علو الله تعالى ، وغير ذلك من السلوب ، السلوب أي النفي ، أن يأتوا بأية محكمة ، أو بحديث صحيح ، أو بأثر عن صاحب أو تابع أو تابع تابع ، أو تابع تابع تابع يؤيد ما يقولون ، لا يوجد شيء من هذا في الكتاب ولا في السنة ، ولا في الآثار عن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ليس في كلام الأئمة من القرون الثلاثة المفضلة ، ما يسعفهم في دعواهم ، وإنما استقوا

هذه المعاني الباطلة ، لما عُربت كتب اليونان ، واستعملوا المنطق ، فأدى بهم ذلك إلى هذه النهايات ، وهذه النتائج الفاسدة ، التي هي في الحقيقة ، غريبة على أهل الإسلام .

متن :

لَكِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ أَنْ يُخَاطَبُوا النَّاسَ إِلَّا بِخِلَافِ الْحَقِّ الْبَاطِنِ، فَلَبَّسُوا وَكَذَّبُوا لِمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فَهَلَّا نَطَقُوا بِالْبَاطِنِ لِخَوَاصِهِمُ الْأَذْكِيَاءَ الْفُضَّلَاءَ إِنْ كَانَ مَا يَزْعُمُونَهُ حَقًّا .

شرح :

بعضهم يقول إذا احتج عليه بذلك ، وقيل له : هذا كتاب الله ، وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نجد فيها شيئاً مما تزعمون ، قالوا : لا يمكن للأنبياء أن يباشروا العامة ويخاطبواهم بحقائق الأمور ؛ لأن عقولهم لا تتسع لذلك ، ولا تتحمل ذلك ، فيقال لهم : أفلا خاطبوا بذلك الأذكياء من خواص أصحابهم إن كنتم صادقين ؟ فلا يُحبرون جواباً في هذا الأمر .

متن :

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ خَوَاصَّ الرُّسُلِ هُمْ عَلَى الْإِثْبَاتِ أَيْضًا وَأَنَّهُ لَمْ يَنْطِقْ بِالنَّفْيِ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ عَلَى أَحَدِهِمْ، كَمَا يُقَالُ عَنْ عُمَرَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ كَانَا يَتَحَدَّثَانِ وَكُنْتَ كَالزَّنَجِيِّ بَيْنَهُمَا، وَهَذَا مُخْتَلَقٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ عَنْ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ: أَنَّ عِنْدَهُمْ عِلْمًا بَاطِنًا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الَّذِي عِنْدَ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرٌّ لَيْسَ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا كِتَابٌ مَكْتُوبٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي الصَّحِيفَةِ، وَفِيهَا: الدِّيَاتُ، وَفِكَالُ الْأَسِيرِ وَالْأَيُّ قَتْلَ مُسْلِمٍ بِكَافِرٍ.

شرح :

الحمد لله ! هذا هو الحق ، ليس في ديننا ظاهر وباطن ، ليس في ديننا شيء مكنون وشيء مبذول ، ديننا بين ظاهر ، لم يخص النبي صلى الله عليه وسلم أحداً دون أحد ، وليس في الشرع شيء مغيب ، يتوارثه أحد دون أحد ، وهذا الحديث المروي المنسوب إلى عمر رضي الله عنه "كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يتحدثان ، وكنت كالزنجي بينهما" أي : لا أدري ماذا يقولان لما عندهما من الأسرار والرموز ، هذا باطل مختلق موضوع ، لا أصل له ، وإنما ألقاه الزنادقة ، ونسبوه ؛ ليزعموا ان ثم علما باطنا لا يُطلع عليه ، وكذلك ما ينسب إلى علي رضي الله عنه ، فإن علياً رضي الله عنه ، نفى عنه وعن أهل بيته ، أن عندهم علما باطنا يخالف الظاهر ، وقال عن الصحيفة : فيها شيء من مقادير الديات وفكالك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر ، ونحو ذلك .

متن :

ثُمَّ إِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ هَادِيًا مُبَلِّغًا بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، إِذَا كَانَ لَا يَتَكَلَّمُ قَطُّ إِلَّا بِمَا يُخَالِفُ الْحَقَّ الْبَاطِنَ الْحَقِيقِيَّ، فَهُوَ إِلَى الضَّلَالِ وَالتَّدَلِّيسِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْهُدَى وَالْبَيَانِ، وَبَسَطُ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ لَهُ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذَا .

شرح :

هذا المسلك يا أيها الإخوان ويا ايتها الإخوات ومن بلغ في الحجاج يسمى "اللوازم" ، واللوازم مسلك مفيد في النفاس ، وهو أن تلزم خصمك بما يترتب على كلامه من فساد ، فإذا أثبت أن ما يترتب على قوله فاسد ، فإن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم ، فإذا قيل : يلزم من كلامك كذا وكذا وكذا ، فأمامه أحد أمرين : إما أن يلتزم به ، فيدل ذلك على فساد الأصل ، وإما أن يبرأ منه ، فيلزم من ذلك أن يتصل من أصل مقالته .

متن :

والمقصود أن ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب وغيره كله حق يُصدقُ بعضُهُ بعضًا، وهو موافقٌ لفطرة الخائِق، وما جعل فيهم من العقول الصريحة، والقصد الصحيحة، لا يخالف العقل الصريح، ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، ولا النقل الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما يظن تعارضها: من صدق بباطل من النقول، أو فهم منه ما لم يدل عليه، أو اعتقد شيئًا ظنه من العقليات وهو من الجهليات، أو من الكشوفات وهو من الكسوفات إن كان ذلك معارضًا لمنقول صحيح وإلا عارضًا بالعقل الصريح، أو الكشف الصحيح، ما يظنه منقولًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون كذبًا عليه، أو ما يظنه لفظًا دالًا على شيءٍ ولا يكون دالًا عليه، كما ذكره في قوله صلى الله عليه وسلم: " الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل فكأنما صافح الله وقبل يمينه " حيث ظنوا أن هذا وأمثاله يحتاج إلى التأويل وهذا غلط منهم - لو كان هذا اللفظ ثابتًا عن النبي صلى الله عليه وسلم - فإن هذا اللفظ صريح في أن الحجر ليس هو من صفات الله إذ قال: {هو يمين الله في الأرض} فتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على الإطلاق فلا يكون اليد الحقيقية وقوله {فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه} صريح في أن مصافحه ومقبله ليس مصافحًا لله ولا مقبلًا ليمينه؛ لأن المشبه ليس هو المشبه به، وقد أتى بقوله: " فكأنما "، وهي صريحة في التشبيه، وإذا كان اللفظ صريحًا في أنه جعل بمنزلة اليمين، لا أنه نفس اليمين كان من اعتقد أن ظاهره أنه حقيقة اليمين قائلًا للكذب المبين.

شرح :

أراد الشيخ أن يبين موارد الخطأ ، كيف يجري الخطأ ويقع من مختلف الناس ، منهم من يظن أن هذه مسألة عقلية ، وهي مخالفة للعقل ، ومنهم من يظن أن هذا النقل صحيح وهو غير صحيح ، ومنهم من يظن أن معناه كذا ، ومعناه خلاف ذلك ، فهذه هي موارد الخطأ التي ينشأ عنها اللبس ، وقد مثل بهذا المثال المشهور "الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن قبله أو صافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه" ، ها الحديث مختلف

في صحته ، والصحيح : أنه لا يثبت مرفوعا ، وإنما ربما صح موقوفا على ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم على فرض صحته ، فإن في ذات الحديث ولفظه ، ما يدل على امتناع الوهم الذي تبادر إلى ذهن هؤلاء ، فإنه قد جعل مشبهاً ومشبهاً به ، ومن المعلوم أن المشبه غير المشبه به ، ثم إنه قد قال في الحديث "يمين الله في الأرض" ومن المعلوم أن الله في السماء ، فصار تقييده في الأرض ، دليلاً على أنه ليس يمينه التي هي صفته التي جاءت بها النصوص ، فيتبين من ذلك أن من اعتقد فهم خاطئاً من ظاهره ، فإنما أتى من جهة فساد فهمه .

متن :

فَهَذَا كُلُّهُ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ كُرِّيَّ الشَّكْلِ، سَوَاءٌ كَانَ هُوَ الْفَلَكَ النَّاسِعُ أَوْ غَيْرُ الْفَلَكَ النَّاسِعِ، قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ سَطْحَهُ هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الْعَالِي عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَوْقَهُ، وَأَنَّ الْقَاصِدَ إِلَى مَا فَوْقَ الْعَرْشِ بِهَذَا التَّقْدِيرِ إِنَّمَا يُقْصَدُ إِلَى الْعُلُوِّ، لَا يَجُوزُ فِي الْفِطْرَةِ وَلَا فِي الشَّرْعَةِ مَعَ تَمَامِ قَصْدِهِ أَنْ يُقْصَدَ جِهَةً أُخْرَى مِنْ جِهَاتِهِ السَّتِّ، بَلْ هُوَ أَيْضًا يَسْتَقْبَلُهُ بِوَجْهِهِ مَعَ كَوْنِهِ أَعْلَى مِنْهُ، كَمَا ضَرَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلًا مِنْ الْمَثَلِ بِالْقَمَرِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَبَيَّنَّ أَنْ مِثْلَ هَذَا إِذَا جَازَ فِي الْقَمَرِ وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَالْخَالِقُ أَعْلَى وَأَعْظَمُ.

وَأَمَّا إِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْعَرْشَ لَيْسَ كُرِّيَّ الشَّكْلِ، بَلْ هُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي هِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ الْفَلَكَ الْكُرِّيَّةِ، كَمَا أَنَّ وَجْهَ الْأَرْضِ الْمَوْضُوعَ لِلْأَنَامِ فَوْقَ نِصْفِ الْأَرْضِ الْكُرِّيِّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَادِيرِ الَّتِي يُقَدَّرُ فِيهَا أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ مَا سِوَاهُ وَلَيْسَ كُرِّيَّ الشَّكْلِ، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ لَا نَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا إِلَى الْعُلُوِّ لَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْجِهَاتِ.

فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا إِلَى الْعُلُوِّ، مَعَ كَوْنِهِ عَلَى عَرْشِهِ مُبَايِنًا لِخَلْقِهِ، وَسَوَاءٌ قُدِّرَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ كَمَا يُحِيطُ بِهَا إِذَا كَانَتْ فِي قَبْضَتِهِ أَوْ قُدِّرَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ فَوْقَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْبِضَهَا وَيُحِيطُ بِهَا، فَهُوَ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ يَكُونُ فَوْقَهَا مُبَايِنًا لَهَا، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فِي الْخَالِقِ وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فِي الْعَرْشِ، لَا يَلْزَمُ شَيْءٌ مِنَ الْمَحْذُورِ وَالتَّنَاقُضِ، وَهَذَا يُزِيلُ كُلَّ شُبْهَةٍ، وَإِنَّمَا تَنَشَأُ الشُّبْهَةُ فِي اعْتِقَادَيْنِ فَاسِدَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْعَرْشَ إِذَا كَانَ كُرِّيًّا وَاللَّهُ فَوْقَهُ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ كُرِّيًّا، ثُمَّ يَعْتَقَدُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ كُرِّيًّا فَيَصِحُّ التَّوَجُّهُ إِلَى مَا هُوَ كُرِّيٌّ كَالْفَلَكَ النَّاسِعِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَكُلُّ مَنْ هَدَى الْبَاعْتِقَادَيْنِ خَطًا وَضَلَّالًا، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَمَعَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْعَرْشَ كُرِّيٌّ سَوَاءٌ كَانَ هُوَ النَّاسِعُ أَوْ غَيْرَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ مُشَابِهٌ لِلْفَلَكَ فِي أَشْكَالِهَا، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهَا فِي أَقْدَارِهَا، وَلَا فِي صِفَاتِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا بَلْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ الْمَخْلُوقَاتُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ دَاخِلِ الْفَلَكَ فِي الْفَلَكَ، وَإِنَّهَا عِنْدَهُ أَصْغَرُ مِنَ الْحِمَّصَةِ وَالْفَلْفَلَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فِي يَدِ أَحَدِنَا، فَإِذَا كَانَتْ الْحِمَّصَةُ أَوْ الْفَلْفَلَةُ. بَلْ

الدَّرْهَمُ وَالذَّيْنَارُ، أَوْ الْكُرَّةُ الَّتِي يَلْعَبُ بِهَا الصَّبِيَّانُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فِي يَدِ الْإِنْسَانِ أَوْ تَحْتَهُ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، هَلْ يَتَصَوَّرُ عَاقِلٌ إِذَا اسْتَشَعَرَ عُلُوَّ الْإِنْسَانِ عَلَى ذَلِكَ وَإِحَاطَتَهُ بِهِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ كَالْفَلَكِ؟ وَاللَّهُ وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى أَعْظَمُ مَنْ أَنْ يَطُنَّ ذَلِكَ بِهِ، وَإِنَّمَا يَطُنُّ الَّذِينَ لَوْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: 67].

وَكذلكَ اعْتِقَادُهُمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّ مَا كَانَ فَلَكًا فَإِنَّهُ يَصِحُّ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ مِنْ الْجِهَاتِ السَّتِّ خَطًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعَقْلِ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْهَيْئَةَ، وَأَهْلُ الْعَقْلِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَصْدَ الْجَازِمَ يُوجِبُ فِعْلَ الْمَقْصُودِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. لَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُقَدِّمَتَيْنِ خَطَأٌ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَتَوَجَّهَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ إِلَّا إِلَى الْعُلُوِّ، لَا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ الْجِهَاتِ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ يُفْرَضُ مِنَ التَّقْدِيرَاتِ سِوَاءَ كَانَ الْعَرْشُ هُوَ الْفَلَكُ النَّاسِعُ أَوْ غَيْرَهُ، سِوَاءَ كَانَ مُحِيطًا بِالْفَلَكِ كُرِّيَّ الشَّكْلِ أَوْ كَانَ فَوْقَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كُرِّيًّا، سِوَاءَ كَانَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ مُحِيطًا بِالْمَخْلُوقَاتِ كَمَا يُحِيطُ بِهَا فِي قَبْضَتِهِ، أَوْ كَانَ فَوْقَهَا مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ مِمَّا تَلِي رُؤُوسَنَا، دُونَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى. فَعَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ فُرِضَ، كَانَ كُلُّ مَنْ مُقَدِّمَتِي السُّؤَالِ بَاطِلَةً، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا دَعَا نَدْعُوهُ بِقَصْدِ الْعُلُوِّ دُونَ غَيْرِهِ، كَمَا فَطَرْنَا عَلَى ذَلِكَ.

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

شرح :

بين الشيخ رحمه الله ، أن منشأ الضلال إنما هو من جهتين :

-إما من جهة اعتقاد أن إحاطة الله تعالى بالمخلوقات تقتضي أن يكون كريا ، وهذا باطل وفهم فاسد ، فإنه لا يلزم ذلك منه ، فإن الله تعالى أعلى وأعظم وأجل من أن يكون كذلك ، بل هذه المخلوقات الكرية ، وهذه الأفلاك المستديرة ، كالخردلة في كف أحدنا ، وبالتالي فلا تلازم بين هذه الكرية وبين إحاطة الله تعالى بخلقه .

-وأما الثاني فهو : اعتقادهم بأنه يصح التوجه إليه من جميع الجهات الست ، وهذا باطل أيضا ، فإنه لا يمكن إلا أن يتوجه إليه من أقرب طريق ، وهو جهة العلو ؛ لأنه أقرب الطرق .

وبهذا تم الكلام على هذه الرسالة ، وتبين لنا أن مسألة العلو مسألة شريفة جلييلة ، وأن ما دل عليه الكتاب والسنة ، قد وصل إلى المقصود مباشرة ، دون الحاجة إلى اللغظ الذي أثاره المتفلسفة والمتكلمون ، وإنما ألجأ إلى هذه المباحثات ، هو ما أحدثه هؤلاء من النزاع ، والتوهّمات الفاسدة ، أن اعتماد الإنسان على نص الكتاب والسنة ، في إثبات علو الرب سبحانه وتعالى علوا مطلقا في ذاته ، كما علوه في صفاته وقهره ، هو الذي يستنبط العبودية من القلب ، ويجمع القلب على الرب سبحانه وتعالى .

فنسأل الله تعالى أن يجمع قلوبنا على محبته وطاعته ، وإسلام الوجه إليه ، وألا يجعل قلوبنا متفرقة في أودية الدنيا .

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

